حياة الفلاح

الحالة الاقتصادية

تتصف الحياة الاجتماعية للأسرة الزراعية، بأنها حلقات متشابكة متماسكة من الأعمال اليومية. ينهض أفرادها من نومهم مبكرين، لأداء صلاة الفجر ثم يشرعون بأعمالهم اليومية، بل إن الساني يباشر عمله قبل أذان الفجر بحوالي ساعتين؛ يقول أحمد العلي الطريقي:

ترى الفلاحه تبي رجل يعومل هدة الطير
ما هو سواتي قليل المال والحيل متواني

ومن القصص الطريفة عن الفلاحة وصعوبتها أن رجلاً كان له عدد من الأبناء، وفي وقت إقبال الناس على المزارع بسبب تشجيع الدولة بالقروض الممنوحة لهم؛ طلبوا من والدهم شراء فلاحة لهم فقال لهم إن الفلاحة متعبة وأنتم شباب مرفهون لا تقدرون على العمل فيها فقالوا له لا تخف، سوف نعمل بكل جد واجتهاد. فاشترى فلاحة ولكن الأبناء عندما وجدوا صعوبة العمل فيها أعرضوا عنها وتركوها فقال:

الـفـلايـح تبـي مـن عـقّـد ردونـه
ما تـبي مشـلكم تـضحون بـغطاكـم

ومعنى تضحون أي تنامون إلى الضحى في أسرتكم.

ويتجه كل فرد من أفراد الأسرة أو الصبيان أو الكلاليف إلى مهامهم. لا فرق في ذلك بين الذكور والإناث؛ إذ إن المرأة تشاطر الرجل في جوانب عديدة من عمليات الزراعة. وقد اكتسبت المرأة النشاط والصلابة والصمود والشباب المتجدد من خلال تلك الممارسات.

والرجل يتولى الأعمال الشاقة، مثل حفر الآبار وحرث الأراضي وزرعها وسقيها وحصاد الزرع وذرايته وتلقيح النخل وتعديله وتركيبه في المراحل الأولى، ثم الصرام والجداد والرياسة -أو التفجير- والسني، وجلب الحشائش والأعشاب

مطبخ في بيت فلاّح – جنوب المملكة

من البر، أمّا المرأة فتقوم بأعمال المنزل المعتادة من تنظيف وطبخ وطحن وهرس بعض الحبوب وجلب المياه إلى البيت على رأسها، وتجهيز علف السواني وتعليفها أو تلقيمها، وذلك بوضع العلف في أشداقها لقمة بعد لقمة. كما تشارك في جلب الأعشاب أو الحشائش من البرية.

ويبدأ عمل المرأة قبيل صلاة الفجر، بحلب البقر وعمل اللبن وتجهيزه، ثم استخراج المياه من البئر وتهيئتها لوضوء زوجها وأبنائه، ثم المبادرة إلى عمل القهوة وإعدادها قبل عودة الرجل من صلاة الفجر. كما أن تجلية الأواني النحاسية وتلميعها يعد واجباً يومياً، وكذلك تكسير الحطب وإعداده للاستخدام اليومي. كما تقوم المرأة

حلب الماعز

منثرة لنقل الحبوب

ابنة فلاّح تحمل شقيقتها

بطحن الحبوب في منزلها؛ إذ لا يكاد يخلو منزل من رحى ومجرشة. كما أن تجهيز التمور للكنز، وإزالة الأقماع أو القموع، والشماريخ والحشف، وتنقيتها للخزن يعد من عمل المرأة. كذلك تعمل المرأة بعض الأدوات والأواني المصنوعة من جريد النخل وسعفه، كالأقفاص والزنابيل والسفيف والمهاف والسفر والحُصُر التي تعد صناعة منزلية. وقد تقوم بعض النساء بتسويقها أسبوعياً. وتصنع المرأة في بعض الأحيان -ولو بالمشاركة مع النساء الأخريات- البسط الصوفية، كالساحة التي تستخدم للجلوس. كما تجلب مياه الشرب من الآبار أو الحساوة القريبة من القرى، وتحملها إما في القرب أو الجرار المصنوعة من الفخار أو من النحاس. ومن هنا نلاحظ أن النساء والفتيات الصغيرات أيضاً يشتركن مع الفلاح في تقديم عمل متكامل، يقوم على التعاون والتكاتف تحقيقاً للمصلحة المشتركة بينهما.

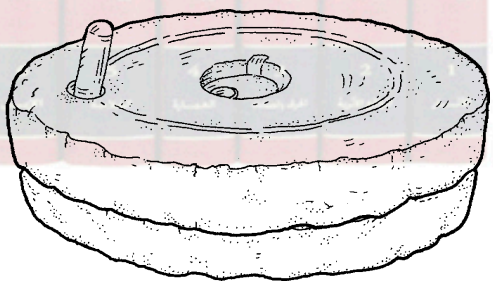

الرحى

نظم المعيشة وأساليبها. تتصف حياة الفلاح بالتقشف، والاعتماد الكلي على المواد المحلية لسد الحاجات الغذائية وشؤون الحياة الأخرى الأساسية. وكانت المنتجات الزراعية، بنوعيها النباتي والحيواني، كالتمر واللبن والزبدة والحنطة وصيد البحر الطري أو المجفف في بعض المناطق الساحلية، هي مكونات الغذاء السائد في منزل الفلاح. وكان الفلاح ينتج في السنوات التي تخلو من الكوارث الطبيعية، التي تلحق أضراراً بزراعته، محاصيل زراعية تكفي غذاءه وتزيد؛ فيصيب بفضله بقية سكان القرية، وأصحاب المهن المساندة الذين يعيشون معه في القرية أو حوله، كالبدو النازلين حول القرية طلباً للمياه في فترة الصيف.

وكانت الأسرة الزراعية ذات نظام تموين غذائي واضح، فرضته مهنة الفلاحة والظروف الأمنية السائدة في ذلك الوقت. فثمّ حوش للإبل أو حظيرة في كل منزل لتربية الأبقار أو الأغنام أو الدواجن أو الطيور، وبئر ومستودع لتخزين التمر والمواد الغذائية الأخرى. وكان من عادات الفلاح أن يخزن من التمر والحنطة، أو الأرز كما في محافظة الأحساء، والسمك المجفف كما في القطيف، والحطب وأعلاف المواشي ما يكفي احتياجاته لعام كامل تقريباً. وخزن التمر داخل المنزل، من

الماعز

أهم سمات نظام الخزن الغذائي. وتختلف طريقة خزن التمور في منازل الفلاحين من منطقة إلى أخرى، كما عرضنا لذلك.

والغرض من خزن التمور، المحافظة عليها في أماكن آمنة، وإخراج كميات منها للبيع في أسواق التمور، حسب قوة الطلب أو الاستهلاك. كما كان الفلاح في بعض المناطق، كالأحساء والقطيف، يخزن الأرز والسمن والحنطة والسمك المجفف، في مكان يطلق عليه دار الجازه، وتكون الحبوب معبأة في أوان فخارية مصنوعة محلياً تسمى الخروس، أما السمن فيحفظ في أوانٍ فخارية ناعمة يطلق عليها الخابية. أما في وسط نجد وشمالها، فالحبوب تحفظ في أحواض داخل الغرف، وهي حُجَرٌ في الطابق الثاني، وتكون الأحواض مفصولاً بعضها عن بعض، لحفظ أنواع عديدة من الحبوب. أما السمن فيحفظ، عادة، في العكك والدباب الجلدية، وهي تشبه في شكلها الأواني الفخارية، ولكنها مصنوعة من الجلد. وقد يحفظ في أوان فخارية تسمى الدِّنان (واحدها دَنّ). كما يحفظ الفلاح علف حيواناته في غرف، يطلق عليها في وسط المملكة الصّفاف أو الدور، وفي الأحساء والقطيف جازة البقر، وفي المنطقة الجنوبية الغربية السفول أو السفالي، أي الطابق السفلي من البيت.

حياض تخزين الحبوب داخل المنزل

وتعتمد الوجبة الغذائية للفلاح على اللبن والتمر والأطعمة المصنوعة من أنواع الحبوب، ولا يشتري اللحم من الأسواق إلا نادراً؛ ومن أمثالهم الشعبية ما يصور ذلك قالوا «أُكلْ السَّحَّةْ والذبيحَةْ لَهَا حَالْ» السحة التمرة وهي فصيحة؛ يضرب المثل لاغتنام الفرصة وتناول الحاضر أو ما تيسر، أما ما في الغيب فله شأن آخر. وفي بعض المناطق لا تأكل الأسر اللحم إلا في عيد الأضحى، لقلة ذات اليد. وكانت وجبة العشاء هي الوجبة الغذائية الأساسية، وتقدم قبل صلاة المغرب ثم تحوّل الناس إلى تقديمها بعد صلاة المغرب مباشرة، وتتكون غالباً من البُرّ الطري أو الصلب أو الأرز. وإذا حدث أن حصل الفلاح على لحم بالاشتراك مع مجموعة من الناس، ويسمى شركْ، عن طريق شراء بعير أو ثور أو بقرة أو شاة وذبحها، وفاق رغبته أو قدرته المالية، فإنه لا يترك جيرانه الذين ليس لديهم لحم من الحذية والهدية من غير طعام. ويندر وجود جزارين في كل القرى، إلا أنهم يوجدون في القرى الكبيرة. ويوم الجمعة يقومون بذبح الأغنام والماعز وينادى لها الدهيْم، وإن كانت إبلاً ينادى لها «صبح ربح الدهيْم» ويكرر الجزار النداء للإعلان عن ذلك، ويسبقون النداء بقولهم الله أكبر، وبدلاً من وضع اللحم في أكياس البلاستيك فإنهم يربطونه بخوص النخل؛ ويباع بالوزن، أما القافله وتتكون من الراس والأحشاء والكبد والرئتين والقلب فإنها تباع مجزأة دون وزن. وإذا لم يوجد جزار واحتاج جماعة إلى اللحم فإنهم يشتركون في ذبيحة ويوزعونها عن طريق الاسم أنصافاً وأرباعاً وأثماناً وأجزاء تضاعف أو تختصر؛ هذا في قرى وادي الصفراء. ويحدث أحياناً توفير اللحم من صيد الوعول والغزلان. وفي عيد الأضحى، حيث تكثر الذبائح ويتوافر اللحم، يعمد الفلاح إلى التقفير أو التوشيق، وذلك بتقطيع اللحوم وتشريحها وتمليحها وتعليقها على حبال حتى تجف. وفي نجد عندما يتوافر اللحم، كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة مع

تربية الضأن في المزارع

قطع من الشحم، ثم يحمّس في قدر على النار، ثم يضيفون إليه ملحاً ويجففونه؛ فيصبح صلباً غير قابل للتعفن ويسمى حميسْ. وفي بعض المناطق، يعمد الناس عندما يتوافر اللحم بكثرة إلى تقطيعه أوصالاً صغيرة، ويطبخونه طبخاً وسطاً، ويضيفون عليه ملحاً كثيراً، ويجففونه ليصبح بعد ذلك صلباً غير قابل للتعفن والتلف ويسمى القَلِيم؛ وهو القديد المعروف. وله في الباحة ثلاثة أسماء هي الجليم (وهي فصيحة)، والقليم والحميس.

أما وجبة الإفطار، التي يتناولها الفلاح بعد صلاة الفجر عادة، فهي من القهوة العربية والتمر والحليب الساخن والخبز والإقط أو الخبز والسمن واللبن وغيره، كل حسب مستواه المعيشي. وعلى كلٍ فهذا الإفطار يتناوله المزارع الموسر؛ إذ ربما اكتفى بعضهم بالتمر أو اللبن أو أحدهما. ويُعد وقت الظهر من ساعات الاسترخاء إذ ينام الفلاح نومة القيلولة المعروفة. ولا ينام الفلاح ضحى ولا عصراً لأن نوم الضحى يبعث على الكسل؛ ونوم العصر مكروه، وينفرون منه؛ ويقولون «إذا نمت العصر صدَّروا عليك الجن» أي جعلوك سانية لزرعهم كناية عن إصابة المرء بسوء من تعب أو تغير مزاج بسبب نومه ذلك؛ قال الشاعر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
هوانا ونومات العصير جنونُ
ألا إن بين الظهر والعصر نومةً
تحاكي إلى أهل العقول فنون

والذي لا ينام بعد صلاة الظهر، يجتمع مع بعض رفاقه بالقهاوي، والقهاوي مجالس الرجال في بيوتهم أو مزارعهم، وهي ليست كالقهاوي المعروفة اليوم، حيث (شبة الظُّهْر) ويتناولون وجبة خفيفة تكون من التمر عادة، ويطلق عليها هجورْ أو قدوعْ. وهذه الوجبة يتناولها العمَّال، عادة، لتكون عوناً لهم على أداء أعمالهم. وتزيد أهمية هذه الوجبة في بعض المناطق، كالمناطق الجنوبية الغربية، حيث تعد وجبة رئيسية شأنها شأن العشاء. فتتكون من خبز البر أو الذرة أو الدخن ومعه اللبن أو السمن، وقد يكتفى بالماء إذا لم يتوافر سواه. وهناك في الباحة وجبة خفيفة تؤكل بعد العصر أثناء العمل في المزارع ولها اسمان؛ ففي شمال المنطقة تسمى الخُلّة وفي جنوبها تسمى اللطَف وهي إحدى عادات المزارعين الكبار.

وعلى كلٍ فالفلاح يغبطه العمال لديه، فهو إذا دخل البيت وهم جياع قالوا إنه ذاهب ليأكل؛ وإن كانوا شباعاً

قالوا إنه ذاهب لينام مع أهله. ولما كان الفلاح ملزماً بإعاشة عماله (صبيانه) أدرك أثر تغير الجو في تكيف الإعاشة معه، ونقل ذلك مثلهم «طال النَّهار، وغنَّت الهَدَاهِد، والصبي باليوم ما ييزيه غدا واحِد» أو «لا ييزي السواق غدا واحد» الصبي: العامل الأجير عند الفلاح. وييزيه: يكفيه. وهذا من الأمثال التي تكشف عن إدراك الفلاح الدقيق لاحتياجات محاصيله والعاملين عليها؛ إذ إن طول النهار وتغريد الهدهد يعني إلزامه بأشياء كثيرة.

وتوارثت البيئة الزراعية آداباً تتعلق بالأكل؛ إذ تظهر الأمثال أن لنوع الطعام طريقة خاصة يتناول بها؛ قالوا «أكل التمر خص وشرب الماي مص» ويروى أيضاً كما يلي «أكل التمر خَصْ والعيش قَصْ» الماي هو الماء؛ ويضرب لإتيان الأمور أو فعلها على الوجه المتعارف عليه، ومنها آداب الطعام والشراب.

المستوى المعيشي. يُعد صاحب الحقل والنخل غنياً مهما اشتد عليه الدهر، وأثقلت كاهله الديون والهموم؛ فهو أبداً يجد في حقله وغلته ونتاج عمله ملاذاً وسنداً من الجوع وأخطاره على البدن والنفس والقيم. وقد عاش الفلاحون في شبه الجزيرة العربية بكل حيوية ونشاط، فنعموا برغد من العيش أعواماً كثيرة كما قاسوا من الحاجة والعوز أعواماً أخرى، لكنهم صمدوا لإيمانهم بأن عمل الفلاح التقليدي مردوده خير كثير؛ وربما يصبح الفلاح مع مرور الوقت تاجراً كبيراً، على حد قول حميدان الشويعر من قصيدة طويلة له:

الى جاك الولد بايديه طين
وله غرس يدفن في جفاره
ترى هذاك ما ياخذ زمان
الا هو جامع عنده تجاره

وإذا كان أفراد عائلة الفلاح يعملون جميعهم في الحقل، فإنهم يعيشون عيشة قد رضوا بمستواها؛ على حد قول أحدهم:

مستانسين في عسرنا
لو كان عيشتنا نواتيف
اللى يبي زين الغنا ينحرنا
والا ترى غيره ما عندنا شيف

وقد ترتفع هذه المعيشة وتنخفض تبعاً لعوامل كثيرة ومتنوعة بل متداخلة؛ ولهذا يمكن القول إن المستوى المعيشي للمزارع التقليدي، أبعد ما يكون عن الاستقرار؛ فهو في سني الأمطار والخيرات يصل إلى مستوى معيشي طيب، حيث تتوافر له جميع أصناف الأرزاق ويعيش الناس في رغد من العيش؛ حتى يقال في المثل

مزرعة هالكة

«النَّز، مْـنَ الدَّز» النز. ظـهور أثر الماء أسفل الحائط وعلى ظهر الأرض. والدز الرفع، أي إن ظهور أثر الماء هو بسبب وجود الماء بكثرة؛ يضرب للدلالة على ظهور أثر النعمة على من أنعم الله عليه بخـير كـثير. أمـا في سـني الجدب، فينخفض مستواه المعيشي إلى الحضيض، حتى إنه يأكل جـلود الحيوانات اليابسة والنوى والأعشاب التي تسد رمقه بغض النظر عن قيمتها الغذائية. فعندما أصاب البلاد الجوع عقب الحرب العالمية، مزج الناس الدقـيق بأجزاء من كرب النـخل المطحونة وثمر العرعر والدعاع والخردل؛ كما طبخوا السلق البري وبعض الأعشاب الأخرى.

يقول سلطان بن عبدالله الجلعود:

مـر يـبدل ربـنـا الـعـسر بـيـسـور
ومـر نـدنّق عـن صـديـقٍ يجـيـنـا
نشـري قراهـم والمسـاعر هكـالدور
الحـب صاع وبـالـرطـب وزنتـيـنـا

وقال شاعر من أهل مدينة قفار بمنطقة حائل:

ول هـمـلانـةٍ تعـطـى الـلـهـايب
طـلـعـهـا مـا يـجـي عـشـر تمـام
راعـيه مـن هـموم الـلـيل شـايـب
صـاحي الـراس مـجـلي الـعـظـام
طـول ليـلـه مـع الملـقـى يـهايـب
يـرقـع الـدلـو يـنـشـق المـقـام

وفوزان بن مـحمد المحارب، وهو فلاح وشاعر عاش حتى منتصف القرن

الثالث عشر الهجري، وقد ضاع شعره إلا الأبيات التالية وهي من قصيدة طويلة. ويرجع سبب حفظ هذه الأبيات إلى أنها جاءت وليدة حادث مر بالشاعر؛ ويتلخص الحادث في أن الشاعر كان له غرسٌ في أرض تسمى فيد العميش بروضة سدير، وبعد أن بدأ النخل يؤتي ثمره انهدمت قليبه فأخذ يضرب كفاً بكف، حيث لم يكن في استطاعته إعادة حفرها وبنائها مرة ثانية لقلة ما في يده؛ فاستنجد بأهالي روضة سدير وجماعته في مَلْهَم وصلبوخ والمجمعة؛ يقول في مطلع القصيدة:

طاحت قليب الغرس وش حيلتي فيه
تهدّم المطوى ولحق المقاما
لو في يدي مالٍ احفره واصاليه
واعيد طيٍ صار وسطه هداما
ياجمر قلبي يوم يبست جوابيه
عقب الرطايب ما تذري الحماما
يالله من رايح سحابك تسقّيه
روايحٍ ترعد وترزم رزاما
قمت اتفكر وافتكر قاعدٍ فيه
ولا ذكرت الا عيال العماما

والصورة العامة للمستوى المعيشي للفلاح التقليدي في الجزيرة العربية قد اعتمدت في مجملها على المتغيرات البيئية، خاصة الظروف المناخية. فالمياه في الآبار السطحية تعتمد على كمية الأمطار الشتوية، في معظم أجزاء المملكة، وهي أمطار تتسم بقلتها وتذبذبها. ولهذا لازم القلق الفلاح التقليدي خوفاً من انقطاع الأمطار، التي هي مصدر مياه آباره ورخاء عيشه. وإن كان يحدث في بعض المناطق، كالأحساء، أن ترتفع أسعار التمور وغيرها من المواد بسبب المحل، ويكسب الناس حتى قيل في المثل «سعورها في محولها».

وفي صورة أخرى لعدم الاستقرار الاقتصادي والمعيشي للفلاح القديم يحدثنا الشاعر سويلم العلي السهلي، بأن الظروف المناخية قد تقضي على زرع الفلاح، فيصبح خالي اليدين يتوجد ويندب الحظ:

ياوجد من صدّر على اربع محاحيل
لها ليا غاب الرقيب معلومي
صدّر على اربعمايةٍ كلها كيل
حبٍ حمر تسقي نواحيه كومي
أربع عقايبها أربعٍ كنسٍ حيل
يشيلن الما في وساع الكمومي
يوم استتم الزرع شال النما شيل
نشت بردها كبر روس البهومي
وهلّت على وسط المفالي همماليل
وصارت على روس النواحي رجومي

واللـي بقي من حـبها شـاله السـيل
عـمالـها وان نـامو الـنـاس تسـهر

غثـو السبل بـالسيل مـثل الهـدومي
سـوانيٍ لـى نامـو النـاس شقـيـات

واصبح يصيـح ويزعج الويل بالويل
مـحـالـهـا كـنـه سـبـاعٍ تجـضـور

عن نـول ما نـالت يديـه محـرومي
عقب الـشديد وتالـي البدو حولات

الله يـكـفـيـنـا شـرور المخـايـيـل
يوم اسـتتم الزرع واقـتم وجا اصفـر

الا عـطا رحـمه كـما انـه رحومـي
قرب الـفرج زلت ليـالي شطـيطات

وإذا كان البَرَد في الصورة الأولى قد أهلك الزرع، فـإن السيول الجارفة هي الأخرى تهـلك الزرع وتلـوع الفلاح، وتضطره للأنين من شدة المصيبة، بل إن جماعته يأتون لتعزيتـه كمن فقد قريباً؛ يقول فهيد بن سكران:

هـبـت جنـوبٍ ثـم قـام يـتـظهـر
مـزنٍ كمـا جـدران حضـرٍ مبـنـات

يـاونّـة الـلـي دايم يـزرع الـبـر
صـاح الملـك فـيهـا وقامـت تـزبر

يسنـي على تسـعين ملحا مـطيعات
والـبـرق كان بمـقـدم المـزن سلات

قـامت عـلى زرع الاجـاويـد تنـثر
لـين انه ادعـى الزرع مـالـه أمارات

قـامـوا يـعـزونـه وقـام يـتـعـبـر
مـقرود يـابـاكٍ عـلى فـايـتٍ فـات

سيل جارف

وإذا كان هذا هو الحال في القرى الزراعية في وسط نجد، فإن المناطق الزراعية التي تمتاز بوفرة عيونها لم تسلم من التغيرات البيئية، التي تكشف في مجملها عن عدم الاستقرار المعيشي للفلاح في الماضي؛ فعلى الرغم من أن الأحساء تعد نموذجاً مثالياً لاقتصاد المحصول الواحد، وعناصره المهمة ذات العلاقة المتبادلة وهي الماء والتمور، وقد ساعدت هذه العناصر مع عناصر أخرى، على جعل مجتمع الأحساء مجتمعاً اقتصادياً فعالاً، فقد ذكرت بعض الدراسات أنه لم يكن مستقراً اقتصادياً. وعللت ذلك بمتغيرات بيئية، أهمها انكماش المساحة المزروعة ببطء

زحف الرمال على المزارع

نتيجة لتناقص غزارة المياه وقلة تدفقها وزحف الرمال وطمرها لبساتين وقنوات ري قديمة، بل حتى مواقع استيطان بشري يمكن تحديد معالمها بسهولة.

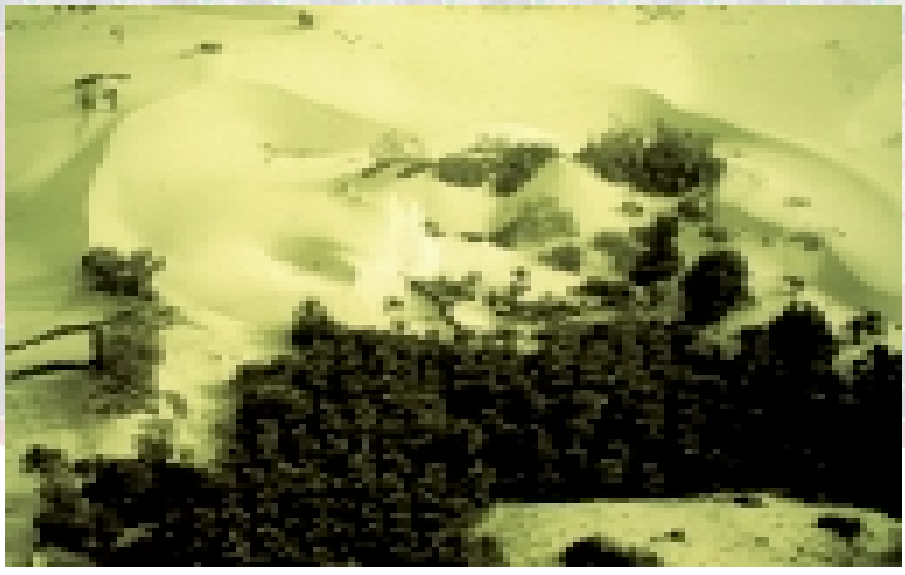

زحف الرمال على المزارع

وذهبت الدراسة إلى أبعد من ذلك حين ذكرت أن خراب المساحة المزروعة، جاء من ارتفاع منسوب المياه الجوفية، التي صاحبت سوء طرق الري للفلاح التقليدي في الأحساء، مما شبع الأرض بالمياه المتسربة، من خلال السدود غير المسامية، وجعل طبقة التربة لجذور النباتات متشبعة بالمياه بشكل غير مناسب. وإذا تعرضت التربة للجفاف، تراكمت الأملاح، فحدت من إنتاج الأرض من جانب، واستلزمت مياهاً كثيرة لغسل التربة من الأملاح، من جانب آخر.

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في الاضطراب الاقتصادي والمعيشي للفلاح التقليدي، الآفات الزراعية والأمراض التي تصيب المحاصيل. وقد يضطر المزارع بسببها إلى العزم على ترك الزراعة كمهنة، ولولا الصغار من أولاده وخوفه عليهم من الضياع لرحل عن البلاد، إلى ديار لا يُعرف فيها وابتاع واشترى كغيره من التجار؛ يقول علي المحمد العلولا على لسان إخوانه من الفلاحين الذين تصاب زروعهم بالأمراض:

يـــالله يــــاوالـــــي الاقـــــدار
تـــفـــرج لمـــن زرعــــهـــم دون
أشـوف زرعــي غـشـــاه صـفـــار
والـبـيـــت بـالـديـن مـرهـــونـي
يـــاطـــارشٍ نـــبـــه الـــســـيـــار
قـــل لـــــلـــرويــشـــد يمـــرون
هـجـسـنـي أمـشـي مع الـسـيّار
وابـيـــع واشـري عـلـــى هــونـي
أهـــل مـــراجـــل وشـــبّـــة نـــار
بـــالـضـــيـــف دايم يـــهـلـــونـي
واشـري مـع الـعـيـر زود حـمـار
يـشـــيـــل عـفـشــي ومـاعـونـي
والله لـــولا الـغـــويـش صـــغـار
واخـاف عـقـبـي يـضـيـعـوني
انـــي فـلا لـــي عـــن الامـــصـــار
بـــديـــار مـن لا يـــعـــرفـــوني
وابـيـــع واشـري مـــع الــتـــجـار
والـرزق يـــأتـي ومــضـمـــوني

وبجانب الأمراض التي تصيب المحاصيل الزراعية فتتلفها، تنتشر الحيوانات القارضة كالجرذان والفئران والجراد التي تتلف المحاصيل وتفتك بها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار قلة المحاصيل الزراعية للفلاح التقليدي، وقلة إمكاناته في دفع أذى تلك القوارض. وقد سجل التاريخ حوادث كثيرة حول الدمار الذي لحق بالزراعة، خاصة في المناطق المجاورة لساحل البحر الأحمر، حيث يعبر الجراد من أفريقية إلى الجزيرة العربية، فيقضي على المحصول وينتشر الجوع ويهجر الناس

مزارعهم وقراهم إلى مناطق لم تتضرر؛ ولعل في مقطوعة إبراهيم بن محارب، التي يصف فيها فعل الجراد الذي أكل المزارع والنخيل، وأحدث في صغاره ضرراً أكثر مما أحدث في كباره ما يغني عن كل حديث، والقصيدة طويلة جداً ولم يبق منها على ألسنة الناس إلا هذه الأبيات:

جانا الجراد امحدرٍ له عشاوير
من الغرب حوّل من علاوي تهامه
من كل جندٍ حاديٍ له زنابير
حاديه كنه موكل عن صرامه
عرّم ودرّم ناميات الجماماير
سوق العسق قصه وهو في كمامه
عرّم ودرّم ناعمات مخاضير
لين اودعه ما عاد يذر الحمامه
لى واهني اهل الثمار المباكير
عن الدبا يابختكم بالسلامه
والا فراعي الخيس كله غثاوير
إلى توزى به يبني خيامه

ونظراً لأن الجراد كثيراً ما يقلب حياة الفلاح التقليدي من اليسر إلى العسر، شبه الشعراء وجدهم على معشوقاتهم، كوجد الفلاحين على زروعهم المتضررة بتلك الآفة لما يعرفه الجميع من قوة الألم، الذي يعتصر قلب الفلاح التقليدي على زرعه حين يغزوه الجراد؛ يقول نافع خليفه المطيري من قصيدة طويلة:

او وجد راعي زرع جاه التهامي
جاه الجراد عصير واصبح وضحا

وقال حويدي بن طهماج العتيبي من عفيف:

وجدي عليهم وجد راعي مذاخير
ذخر لابوه الفين غرس وقليب
صفط له الله واقطعت جمة البير
وجاه الدبا الرنان واخلى الركيب

وقال فهد الفويه السبيعي من حائل:

أو وجد من له غرسةٍ بين فرعين
ليل ونهارٍ ما يبطل سياقه
وقع قليبه واهشمن البساتين
وموّت غريسٍ فوق زّمة شقاقه

ويتوجد عثمان الزامل على معشوقته، ويقرن ذلك بتوجد المزارع الذي أصاب زرعه الدبا لما بينهما من صدق الوجد فيقول:

وجدي عليها وجد زراع بيرين
سوانيه ستة عشر ماه مقرون
عمالها خمسه ورواسها اثنين
واهل الخلا عشرين اللي يجثون
يوم انجرد زرعه وبالعيش بهشين
جاه الدبا حرش العراقيب ساحون
يوم اصبحوا واقفوا على الزرع مشفين
والاه في روس السنابل يخرفون

الجراد آفة المزروعات

ردوا وقالـوا اوضعـوا ما قسـم شين

ما مـن عوض قالوا مـن الله يرجون

وإضافة إلى التغيرات البيئية والآفات الزراعية، ثمَّ عوامل أخرى ساهمت في الاضطراب الاقتصادي للمراكز الزراعية التقليدية في هذه البلاد. فعلى الرغم من إنتاج التمور والحبوب فإن كمياتها وأسعارها كانت تتذبذب تذبذباً شديداً، فقد ترتفع الأسعار بشكل كبير جداً، أو تهبط هبوطاً حاداً في المناطق التي تتعرض للحروب أو الفتن المحلية أو القبلية.

كما ساهمت بعض العوامـل، مثل ضعـف الأمن والغـارات على قـوافل التجارة، علـى طول الطرق البرية قبـل توحيد المملكة، في خلق صعوبات في تصدير فائض الإنتاج من مراكز الإنتاج الزراعي الكبيرة، مثل الأحساء، واستيراد مواد أخرى. وكانت وطأة ظروف الأمن على المناطق الزراعية تختـلف باختلاف قوة الفلاح. فالفلاحون الصغار هم من يتأثرون، عادة، بمثل هذه الظروف الآنية، إذ يستطيع الفلاح الذي يملك القوة توفير السلاح والحماية لقوافله وتصدير إنتاجه.

مصادر التمويل. كان الاعتماد على الذات في تمويل الزراعة التـقليدية لدى ممتهنيها نادراً. ولعل ندرته جاءت من أن عدد كبار المزارعين التقليديين قليل جداً، موازنة بعدد المشتغلين بها. ثم إن الزراعة التقليدية في المملكة كانت زراعة اكتفاء ذاتي (معايشة)، فالعمليات الزراعية توجه

عادة لسد حاجات المـزارعين، ولغرض الاستـهلاك المحـلي مـهمـا كثـر عدد المشـتغلين بـالزراعة، ومهـما صغـرت المساحة المزروعة. ولذا انحصر التمويل ورأس المال الزراعي على المداينه أو الكَتْب أو الثُّمْنَه من التـجار أو رهن المزرعة أو المنزل إن كان رأس المال كبيراً. ولما كانت الكتابة، عادة، غير مضمـونة بسبب ما ذكرناه سـالفاً عن العـوامل التي تجعـل مستوى الفلاح التقليدي غير مستقر؛ فقد جاءت وصية الشاعر حـميدان الشويعر في الأبيات التالية:

ياهـبيـل العـرب لا تكـد القـصب
لـين سـيـلـه يعـقـب الـرقـيـبـيـه
اكـتب الـغـرس قـبل ديـنٍ يـجيـه
اكـتـبـه لـلـعـيـّل بـطـلـحـيـه
عـز عـيـيـلـك لا تـدور الـنـقـاد
فـي همـال القـصب مـن جنـوبيـه
إن بـقن الـزرانـيق لـك هـاالـسنـه
فـاجـغـط الديـن والـعـب الـبـيـه
وخذ مـنه ماطـرا لك علـى ما ترى
واذخـره فـالـلـيـالـي لـهـا نـيـه
وواعـده مـع وقـيـان لـك نـاقـة
خِـلّـيت فـي نـفـود الـشمـاسـيـه

والقصيدة في مجملها تكشف صوراً عديدة عن الزراعة التقليدية في شبه الجزيرة العربيـة، فقد حذر مخاطبه مـن الكد، وهو القيام على النخل في بلدة القصب، إلا إذا كان السيل قد تعدى بئر الرقيبية، وهو إشارة إلى أن المزارع التقليدي، يمكن أن يتأكد من المياه السطحية فقد لا تكون كافية، إلا إذا كانت الأمطار قد وصلت إلى المدى الذي حدده. وقد استقى ذلك من خـبرتـه، فالـقصب مـسقـط رأس الشاعر، ولذا فهـو يعرف كمية الأمطار التي يمكن أن تكون كافية لتغذية مياه الآبار التـي تعتـمد علـيها الزراعـة في تلـك الأرجاء. أما في البيت الثاني من قصيدته، فهو ينـصح المزارع التقليدي بـأن يكتب الغرس، ويقصد به مزرعة النخيل، للعييل (تصغير عيال)، وهم الأولاد ذكوراً وإناثاً، بطلحيَّه، وهي الورقة الموثقة خوفاً من أن يستوفي به صاحب الدين دينه. فالتمويل ورأس المال الزراعي، يعتمد في مجمله عند معظـم الفلاحين التقليـديين، على المداينة والكَتْب أو الثُـمنة والرهن. وفي كتابـة الغرس للأولاد ضـمان وعز عن البحث لإطعام أنفسهم من همال النخيل. ثم يختـم نصيحته بقـوله؛ إذا ما بقيت الزرانيق تحت تصـرفك، وهو كناية عن عدم رهنها، فإنه بإمكانك أن تـزرع ولو تديَّـنْت، ولـكن عـليـك أن لا تنـسى الادخار، فالليالي لها (نيَّات) أي تقلبات، فإذا جاد محصولك هذه السنة، فـقد لا

يجود في السنة الأخرى، وهو تصريح لما سبق أن ذكرناه من اضطراب الوضع المعيشي للفلاح القديم.

وصفة الكَتْب، أو الثمنة كما تسمى في حائل، أن يقول المزارع للتاجر؛ أريدك أن تسقمني، وذلك بإعطائي شيئاً معلوماً من النقد ثمناً لمحصولي الذي سوف أزرعه، ويحدد نوع المحصول. وبالطبع يكون ثمن ما سوف يشتريه التاجر من محصول الفلاح، أقل من الثمن الحالي للمحصول سواء كان تمراً أو حباً. فإذا كان الصاع يباع بأربعة ريالات في فترة الشراء، فإن التاجر يعطي المزارع رأس المال المطلوب على أن يبيعه المزارع الصاع عند الحصاد بثلاثة ريالات أو أقل. ومدة الكتب عمر المحصول المكتوب عليه. أما صفة المداينه أو المغايبه أو الوعده فهي أن يبيع التاجر للفلاح من سلعه كالأرز أو القهوة أو الهيل أو القماش ونحوها، ويعطيه إياها بسعرها الحاضر على أن يرد قيمتها بعد سنة كاملة، بزيادة نسبة محددة عن سعر الحاضر. فإذا كان ثمن السلعة ٣٠٠ ريال فإنه سوف يردها بعد عام ٣٦٠ ريالاً أو ٣٩٠ ريالاً وهكذا. فإذا قبل الفلاح أَخذَ السلعة وباعها لمن يرغبها وقبض ثمنها، لشراء ما يحتاجه من سوانٍ أو أجور عمال ونحو ذلك.

وإذا كان المال المأخوذ من التاجر كبيراً، فإنه يعمد، عادة، إلى طلب الرهن، ليكون أكثر اطمئناناً على استرداد حقوقه. ويكون الرهن، عادة، لملك الفلاح أو منزله أو شيء من ممتلكاته. ومن الطرق الأخرى التي يلجأ إليها المزارع استئجار الجمال من البدو، مقابل كمية من الزرع أو التمر في نهاية الموسم تسمى الكروه.

واعتماد الفلاح التقليدي على الدين والكَتْب، في تمويل نشاطاته الزراعية لا يسلم منه إلا النزر اليسير. ولعل في قصة الرجل الذي سأل رفيقه في السفر عند مروره بمزرعة قمح وقوله له: هل تعتقد أن الفلاح أكل زرعه؟ قال له رفيقه: كيف؟ إنه لا يزال أخضر!! وكان السائل يقصد هل استدان الفلاح من التاجر أم لا؟ إذ العادة أن المزارع لا يصله من محصوله إلا القليل بسبب الدين أو الكتب، يقول هويشل بن عبدالله مصوراً جشع التجار الذين كان الفلاحون يستدينون منهم لسد احتياجاتهم، وكان التجار يثقلون كواهلهم بالدين، ويرهنون منازلهم وسوانيهم وكل أدوات الزرع:

السقيم السقم والوجه اللديد
وان ولى المعسر حصد عرقه حصاد
يرهن الرفه وبيته والمعيد
وكل شيٍ ياخذه حتى العتاد

وقال عبدالله بن فرحان القضاعي من أهالي مدينة الروضة بمنطقة حائل:

ما احلاك يا غرسٍ على مجنب السوق
لى شافهن مولّع الغرس يشتاق
غيدٍ عليهن ناخذ الطاق مطبوق
غيد يقطّعن الدفاتر والاوراق

وكان جشع التجار وقسوتهم في استيفاء حقوقهم، من أشد الهموم التي أقلقت بال الفلاح التقليدي في شبه الجزيرة العربية؛ فجاء شعر كثير من أهل الحرث مليئاً بذكر التاجر أو العميل أو المسقِّم أو المعزِّب؛ ولذا قالوا في أمثالهم الشعبية «الكد نكد ولو ركد». والمعنى أن الفلاحة مليئة بنكد العيش ولو كانت في بعض الأحوال راكدة؛ ومن أصدق صور هموم الفلاح ما يلي:

اليوم صرنا في همومٍ وفي كد
نفلي شقوق غروبها بالخرازه
يالله لعله كلما هل وارعد
يسقى غروسٍ به عليهن عازه
بيارها ترجع وماهن يرتد
والدين يوفى ماله إلا نجازه

وقال أيضاً:

نصيحةِ ياهل الفياض اشتروها
وان ما شريتوها تجيكم هياته
تصبروا بنخيلكم وعمروها
والكد ما ينفع ردي بتاته
رجلينكم ويدينكم شغلوها
صيروا كما ابن عمير سووا سواته
واهل الديون الغاليه جنبوها
تتعب عليه ياكلون ثمراته

وقال عبدالله بن سبيل:

الفاطر اللي باول الوقت سبيت
اليوم عندك جلدها تقل مدهون
اصلف عليها كلما اقبلت واقفيت
الزرع يبغى الما وراعيه مديون

وقال سعد بن محمد بن يحيى في قصيدة له:

يالله من قلبٍ تلوعه همومه
كما يلوع الهيف عشب المسيله
ما عاد ألد بخد زاهي رقومه
وأنا من اول في الطريق انثني له
الهم بانت بى بواين سهومه
الله يبدلها بحال جميله
يالله من نوٍ ترادف غيومه
نوٍ من القبله حقوق مخيله
نوٍ سرى كن الرواسي خشومه
هبت له انسام الجنوب ورفى له
وتطلّقت مثل الغراير فعومه
في دبرة اللي سيّره مع وكيله
يدير حوله والندى في حزومه
والعشب ينبت في مدامث رميله
راعي المطالب راح يقضي لزومه
وراعي الفلاحه ريع كده يجي له

حب العراق يجنبه ما يسومه
فشلٍ بتدبيره وفشلٍ مكيله
وراعي العبس ما خاشره في سهومه
ولا اوقف الناظر بوجهه عميله
يجيه مخلاصه بليا خصومه
والستر يشرونه رجال القبيله
ومن كان له مطلب خلص في يمومه
وتواضعت عنا الحمول الثقيله

وقال ناصر بن سليمان بن عمير:

يالله ياقابل دعا كل مضطر
يامظلل يونس عن الشمس بظلال
إلى بغينا شي ما احرز ولا اقدر
واصبر كما صبر الصعينى إلى شال
والعفو يالاجٍ بقلبي من الحر
ومشكاه للي عالمٍ كل الاحوال
جيت المعزب هم قام يتعذر
ويقول عيا يفهقه راعي المال
وعز الله إنى مجهدٍ مير ما سر
صارت علينا عملة القرم غربال
من جا عميلٍ للكداديد يصبر
وإلى بغوا شيٍ يحايل ويحتال
ورعاننا قامت تصيح وتعبر
والورع ما يصبر إلى حده الجال
العام ماكوله من التمر الاصفر
وعميلنا في عملته يطرب البال
واليوم دمع الورع قام يتنثر
إلا إن شرينا له من السوق بريال
وإن كان منهم مطلبي ما تيسر
فانا اشهد إن رزقي كما رزق حبال
ويالله من نو مزونه تزبر
نو عروض وبارقه يشعل اشعال
ونهار ثالث يرخص التمر والبر
وكلٍ تبجّح بالحيا عقب الأمحال

وقال سويلم العلي السهلي:

من الهجس والهاجوس وهموم ديان
رجلٍ يبي حقه مصيب ونصاني
والحق دين وصاحب الحق سلطان
لولاه هاقٍ بالوفا ما عطاني
والعسر شينٍ يودع الرجل ينهان
ويقصر لسان البارع الترجماني

ولعل في استغاثة عبدالله بن دويرج ولقبه هدبان، ما يوضح المعاناة التي يلاقيها الفلاح من جشع المعزِّب أو التاجر، ويكشف سر طلبه الغيث لا لمنطقة السر حيث يقيم الشاعر، ولكن كل المناطق التي تعتمد الزراعة فيها على الأمطار التي ترفع مياه الآبار؛ يقول:

جزا النوم عن موق عيني وفر
ولا عاد له في نظيري مقر
الى اغلنطس الليل اعد النجوم
من الجدي لسهيل لين المجر
ولا اتقن عددهن برسم الحساب
حذا ما هفا للمغيب وظهر

واصنف بعقلي على ما يليق ... وسقا ساق واسواج وبل حقوق
وش اسباب عين جداها السهر ... وأجا هو وسلمى وابان الحمر
ولا شفت لي بالخلايق سناد ... وبسطة خياله تعم القصيم
سوى من عليمٍ يدير النظر ... كثير المنافع قليل الخطر
إله عليم السرايرٍ ودود ... الى هب نسم الصبا وارتدم
مدير الفلك في جميع القطر ... تعزّل ربابه وماه انتشر
احدْ فرد جِزل العطايا عظيم ... جرى جور صافيه فوق الوطا
تجلى لموسى وذاب الحجر ... غديرٍ يدم السهل والوعر
أساله بسبع المثاني تمام ... تحرب الحيوان منه الجحور
وعم وطه وباق السور ... تشوف الغثا فوق روس الشجر
عليه اشتكى الحال في كل حال ... ثلاثة عشر يوم منهن ودون
له المجد والجود واله الفخر ... ولا يلحق الناس منه الضرر
وعد بالصخا والرخا والمزيد ... الى زل عشرٍ وسبعٍ تمام
من اثنا بحمده عليه وشكر ... مع اللي مضى له يتم الشهر
يقود الرجا للخلايق عموم ... فلا زال حسبة شهر واربعين
أهل بر الاسلام واهل البحر ... ترى الفقع بالنقع هو والزهر
بنوٍ صدوق المخايل عريض ... تدور السنه والمفالي بحور
دفوقٍ رفوقٍ حقوق المطر ... ولا يلتوي كل عودٍ خضر
نشا من كريمٍ يسوقه مطيع ... على شان عقبه تلين القلوب
سكب وارتكب واعتدل واعتمر ... ولا يربح اللي قنط واحتكر
علاويه جدّه وحدّه جنوب ... الى قالوا الناس فيها بروق
على اطراف صنعا وهاك الدير ... كمش وانقبض خاطره وانقهر
غشا النير وطويق شهلول ماه ... فالى اصبح وهو ما لفى علم سيل
وهو بامر منشيه مجرى القدر ... ضحك وانشرح خاطره واستسر
ويغشى المدينه وينبع سحاب ... عسى الله يذله بعز الضعيف
على جو تيما ومنه انحدر ... إلهي ومحصي حساب الدهر

قـلـيـل المـسـاحـي لحـقـه الـدرك
كـسـره المعـزب وهـو مـا انكـسـر
يـدير الـروابـع عـلى وش يـصـيـر
فـالـى هـم فـي ديـنـةٍ مـا جـسـر
اقـولـه وانا مـن زمـانـي مْـخيـف
قـزا النـوم عن حـجـر عيـني وفـر
صلاتـي علـى المصـطفـى والسـلام
عـدد ما غـطا الـلـيل نـور السـفـر
كـذا آلـه والـصـحـابـه جـمـيـع
عـداد الـشـجـر والحـجـر والمـدر

ويقول أبو عليان من أصحاب الحرث في قرية القرائن بالوشم:

الـلي يـبـي دينـه يـجي لـه لحـاقه
يـزرع ترى بـعض الـزرايـع توفّـيـه
عـزّي لمن تـوخـذ عـلـيـه الـوثـاقه
والـى بغـى لـه حاجـةٍ بـرّقوا فـيـه

لقـد أفزع حـلول الـدين الـفلاح التقليدي القديـر، مثل كليب بن ناجي الـدوسري مـن أهـالي الأفـلاج وهو صاحب نخل تراكمت عليه الديون، على حد قول حميدان الشويعر:

وكـل مـن تـديـن لـيـوفـى ديـون
يـحسـب انه نـفه مـن ديونـه واراح
مـا درى انـه يـزيـد الـديـن ديـن
وزاد هـمه هـمومٍ وهـو ما اسـتراح

حتى وصل بـالغريم التفكيـر بأخذ النخل مقابل الدين، لأن الديون تراكمت على كليب بسبب طول الإمهال. فكلما طالت المـهلة زاد الدين، وعنـدما تحدد بيع النخـل لجأ كليبٌ إلى جماعتـه من البادية لمساعدته، لتسديد ديـنه، لإنه لا يمكن أن يستغني عن حقله بأي حال من الأحوال لـلأسباب الـتي شرحـها فـي القصيدة، وهي:

لى شفـت راعى الدين فزيت مـرتاع
حيث ان راعـى الحق ما هو بمـنوع
يـالله يـامـن هو لـداعـيـه سـمـاع
والـى دعا غـيره فـلا هو بمـسـمـوع
افـرج لمـن وجـهـه غـدا فيـه لمـاع
من كـثر دكات الـهواجيـس مرموع
ياغرس يـاللي في الفضـا كنه اقطاع
مثل الجـهام اللي عـلى العد مـقروع
خمـس قوانـيـنـه علـيـنـا لهـا اتبـاع
شـرعٍ لـنا مـا هـوب تـوه بمـبـدوع
لى مـن دخلـه الجار ما هـو بيـرتاع
وبـنـاه مـا هـو دون الأدنين مـرفـوع
مـا خز بـالجـدران عن كـل طـماع
لـو كان فـي بـرٍ فلا هـو بمطـمـوع
سوره مـواصيـلٍ بيد كـل صعـصاع
ومـسـلـبات زادهـا الـدرج مـيـوع
والثـانيه لى جـوا هل الهجـن خراع
يشكـون اهلها لاهب الـقيظ والجوع
نبدي لـها الترحيـب ما مست الـقاع
مانـي بمن كنه عـن الضيف مـقموع

والـثالـثـه ندنـي قـنا كـل مـسراع
مانـي بصعـب مير قـدني لها طـوع
والـرابعـه زادٍ بهـا الـسمـن مـنداع
ومر مـعه كبـشٍ من الضـان مفدوع
والخـامسـه خصـة رفـيقٍ لـنا جـاع
يـلقـى بنـا في غـبر الايـام منـفوع
يالـلي تسـوم الغرس مـا نيـب بيّاع
ياما اهبلك يـاللي تـسومه بمقـطوع
اطـريـت بـيـعه بـاغـيٍ بـه تمـنـاع
مـن واحدٍ ديـنه مـن العـام مدفـوع
نشـري الثني مـنٍ مال بياعـة الصاع
كم لـيلـةٍ نشـبع وهـو طاويٍ جـوع
وان بعـت انا غرسي فـلا نيب بـيآع
ياويش اسـوي منه ليا رحت مـقلوع
مـانـيب لا عـامـل ولا نـيب زراع
ولا نيـب سراحٍ لـه الشـرط مدفوع

أما الشاعر عـبدالله اللويحان فقد كـان فلاحـاً يقـطع الخـبط ويـحـش الحشيش. ولّما أصابت المساغب الناس في عام ١٣٣٥هـ، ذكر أن غزة الناعور أي ركز أدوات السقي، وهي كناية عن امتهان الزراعة، ألحقت به الدين، وكان قبل ذلك سالماً منه، ذاك أن كل شيء في الأعمـال الزراعية يتطـلب منه أن يستدين:

حداني على قطع الخبط غـزة الناعور
وانا قبل غزه سالم الدين واشوى لي
أصافح بعمري بالشقا واشغل المقدور
ولا لي بكتب الدين والزرع مدخالي
ولا عرف جلوى والمخانيق وام القور
كليـفٍ تعبهـا والله اعلم بالاحـوالى
كليـفٍ تعبهـا كن شغّالـها مصخور
ولو نام طول الـليل ما منش مقيـالى
تمنيت والاي اني على اللي تكب الكور
طلـيق الأيادي تقـطع الفـتق الخالى
ابا انحـر ديار تسمـع الريل والبابـور
ديار الـرخا ما قـالو الـصاع بريـالى
أبى اهدي عليكم يافلاليح مني شور
إلى صار كلش دين من صاحب المالى
ترى تركته في مطلـب العز والمذخور
اقوله وانا ما انذرت حالي عن افعالى

وعلى الرغـم من أن هموم الديون والاستدانة كانت تلاحق الفلاح القديم، نظراً لـقلة الإنتاج وتـعرضه في بعض السنـين للآفات والأمراض أو انحبـاس المطر من السماء، إلاّ أنّ حالات الكَتْب والمداينة، كثيراً ما تنتهي بالوفاء، خاصة إذا كان الدائـن والمدين صادقـي النية. وحالات الوفاء بالدين تفوق في مجملها حالات بيع المرهون أو تراكم الديون على الفلاح القديم. ونجد في قصيدة للشاعر عبـدالرحمـن بن عبـد اللطـيف دعاءً واستغاثة لله بأن يبارك له في نياقه، وأن يبدل حال العسر باليسر ليوفي دينه ويحرق

صك المداينة بالنار؛ يقول في تلك القصيدة:

يالله ياااللي في السماوات عالي
يالمعتلي فوق الخلايق رقيبه
يالله انا طالبك تقبل سوالي
اتخلي لنا اللي كلنا نعتزي به
يارب بارك له بكل الحلالي
بالدق هو والجل تعلق نصيبه
يارب بارك في بنات الجمالي
اللي تسقي ناعمات الرطيبه
اللي تجر الغرب فوق المحالي
لكن بين انباعها صوت ذيبه
يارب هون غرسنا بالخيالي
من رايحٍ مزنه رعوده ضبيبه
عساه يسقي الغرس هو والحيالي
وعسى عباره ياصل الملتهي به
يارب توفي عنه دين الرجالي
توفي ديونٍ كايداتٍ صعيبه
يارب توفي ديننا بالكمالي
ديانتنا صكه بضوٍ رمي به
عساه للجنه وطيب العمالي
عساه جارٍ للنبي من قريبه
وعساه يشرب من نهرها عسالي
ومقابلٍ حورٍ ضحوكٍ عجيبه
صلاة ربي عد نفد الرمالي
على النبي عدة نجوم المغيبه

ومن تلك الصور استغاثة سلطان ابن عبدالله الجلعود، من مزارعي الجبل وشعرائهم المشهورين، التي ينادي فيها ربه جل وعلا بأن يجلي الليل بأبلج النهار، ودياجير الظلام بأشعة النور، ويقصد بذلك تغيير حالات العسر إلى حالات اليسر. ويتمنى أمنية غالية يتمناها كل إنسان يعيش على أرض هذه الجزيرة ملتصقاً بترابها، وهو خيال السحاب المبشر بنزول المطر، إذ هو أساس بقاء واستمرار الحياة على هذه الأرض، لا سيما عند المزارع والراعي، إذ هو مصدر رزقهما جميعاً. فنزول المطر يعني امتلاء المزارع وازدياد المياه الجوفية داخل الآبار التي يُسنى عليها لسقي المزارع والنخيل، التي هي مصدر رزق الفلاح ولقمة العيش الكريمة. وفي هذه القصيدة يصف الشاعر أدوات السواني وحيواناتها، وصف المحب العاشق لهذه المهنة. وينتهي إلى أن استغاثته هذه جاءت نتيجة لتكتيف يده، وإثقال كاهله بالديون، ومنعه من التصرف بالمال إلا بعد وفاء دين التاجر، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الوفاء إلا إذا أثمرت النخيل الباسقات اللواتي تناضد التمر في فروعها بعد سقوط الأمطار. يقول من قصيدة طويلة:

يالله يـا اللـي تجلـي اللـيل بـالنـور
يـا اللـي تجيـب لدعـوة الطـالبـينـا
زان الخـيال وبـت بالـلـيل مـسرور
أطـلـب لعـل الله يـرجـع علـيـنـا
أطلـب يعله لـى نوى الوسم بـبدور
يـاعـل برقٍ فـوق اهـلـنا يـجـيـنا
نفـرح ليـا قالـوا لنـا اللقـم ممطـور
مـغـانـي السـمـره شـمـام تجـيـنـا
نجـذب قراح مـشـمر كـل عـنقـور
نسـقي الغريـس ونفرح اللـى يجينـا
مـحال يـا جرّن تـقـل حس بـابور
لادنـدنـن نقـعـد بـهـا النـايمـيـنـا
مـن فوق حـيلٍ ربّـعن كـنسٍ حـور
لـى صدّرن كـن العـرب مطـلبـيـنـا
واحلـو جرتهـن ليا صـرت بقصـور
وعلـيك مـن دين الأجـاويد شـيـنـا
سريـهن تحـت الحلـى تقـل خابـور
كـل يـقول لحـيـرهـم مـعـقديـنـا
تلـقى القـنا يا جـيت هو تـو مابور
وليـا انهـزع ما تـنهـضه بـاليـمينـا
كم واحد يـكتف من الـدين ماسور
وليـا اثمـرن يطـلق كـتاف الـيدينـا
وكم دفتـر قِطّع على الحـول مجرور
وكم مـن عميـلٍ قـال حنـا رضيـنـا
يـالله يالـلي تجـلى الـلـيل بـالنـور
يـا مـوفـيٍ ديـنٍ هـلـه ميّـسـيـنـا
يـاموفـيٍ دينٍ عـلى الجـسم مـزبور
تـوفيـه يـالـلي تـبـعـث الميـتـيـنـا
تم الـكلام وكـان ما قـلـت به زور
يـاغـافـر الـزلات لـلـمـذنـبـيـنـا
وصلوا على اللي خص بالوحى مامور
واصـحابـه اللـي بالحـرم ساكـنيـنـا

التسويق. إذا استثنينا الحبوب والتمور والأعلاف، كـالبـرسيـم والذرة، فـإن المحـصولات الـزراعيـة لـدى الفـلاح التقليدي لم يكن الهدف منها التسويق؛ فالمنتجات الزراعية المستثناة هي في أغلب الأحوال مكتوبة أو مرهونة بدين التاجر،

تسويق الماشية

على نحو ما ذكرناه، في توفير رأس المال الزراعي للفلاح التقليدي. ففي المراكز الزراعية الكبرى، كالأحساء والمدينة المنورة وبيشة والقصيم، التي اشتهرت بتمورها، كان مزارعوها يسوّقون إنتاجهم على مستوى المملكة بل تجاوزوها في بعض السنوات إلى الدول المجاورة. ولكن يظل المزارعون الصغار، حتى في محافظة الأحساء، يبيعون منتجاتهم الزراعية بالتجزئة في الأسواق المحلية العامة التي لها استقلال ذاتي، إذ تقوم على المنتجات الزراعية المحلية مثل الحبوب والدجاج وصغار الحيوانات، ويتم التبادل التجاري داخل هذه الأسواق بالنقد.

العنبروت

وقد ينضم لمهنة التسويق هذه بعض تجار التجزئة، أو أولئك الباعة الذين يتنقلون بين الأسواق حاملين معهم بعض المنتجات الصناعية الثانوية، مثل الصابون وأعواد الثقاب والعطور والهدايا التقليدية. وتبلغ الأسواق قمة نشاطها التجاري أثناء فترة الحصاد، إذ يقدم الفلاحون الفائض من منتجاتهم إلى هذه الأسواق، التي تكون عادة في وسط القرية وبالقرب من المسجد الجامع، حيث المساحات الواسعة المعدة لهذا الغرض. وفي هذه الأسواق يحصل الفلاح على النقد من أولئك التجار الذين يحضرون لشراء المنتجات الزراعية، ونقلها إلى الأسواق الإقليمية أو الكبرى.

وفي بعض المناطق، كالأحساء والباحة وجازان ونجران، تكون الأسواق أسبوعية، ويختلف اليوم المحدد لإقامة السوق من منطقة إلى أخرى. أما المكان فيشترط فيه أن يكون واسعاً، بحيث يتسع لآلاف الأشخاص. كما يكون ثابتاً عند تقاطع طرق أو بالقرب من قرية صغيرة. أما رواده من المتسوقين والباعة، فيأتون إليه من الأماكن القريبة مشياً على

العنب

الأقدام، أو على ظهور دوابهم ويعودون إلى أماكن إقامتهم، في اليوم نفسه. وتسهم النساء إسهاماً فعالاً في مختلف النشاطات داخل هذه الأسواق، كما تقوم هذه الأسواق بدور اجتماعي مهم؛ إذ يلتقي الأقارب والأصدقاء داخل هذه الأسواق أسبوعياً.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك أسواقاً تقع في أعلى النظام التسويقي الزراعي المحلي في الماضي، وتتخذ من المراكز العمرانية الكبرى، كالرياض وبريدة ومكة والمدينة والهفوف والمبرز والدمام ونجران وجازان والخرج وغيرها من المراكز الأساسية، مكاناً لوجودها. وتختلف هذه الأسواق عن الأسواق المحلية، في أنها دائمة ويومية، وإن كانت بعض المنتجات الزراعية تتوافر في أيام دون أخرى. كما تختلف عنها في أن بضائعها معالجة ومعدة للتصدير الخارجي أو التسويق الداخلي البعيد.

ومن الصور الأخرى للتسويق الزراعي لدى الفلاح التقليدي المقايضة، وهي أن يعطي الفلاح التاجر بعض إنتاجه الزراعي كالحبوب والتمور، ويأخذ عوضاً عنها بعضاً من احتياجاته كالبن والهيل والسكر والشاي أو بعض الأقمشة الرجالية والنسائية. كما تتم صورة أخرى من صور التسويق الزراعي للفلاح التقليدي بين الفلاحين أنفسهم، وذلك بتبادل منتجاتهم

سوق السمن

وزن البرسيم

فيما بينهم. فمن لديه حبٌّ يستبدل به تمراً وهكذا، أو بين الفلاحين وأهل البادية حيث يقايض التمر والحب بالسمن والإقط وبعض الدواب.

ومن صور التسويق الزراعي لدى الفلاح التقليدي بيع الثمرة على الشجرة. ولا تكون عادة إلا في التمور وما أشبهها، حيث يمكن الاستفادة من

منتجات زراعيّة

تسويق المنتجات الزراعية

رطبها منذ بداية استوائه (نضوجه) حتى فترة الصرام. وقد يتم شراء الثمرة على الشجرة بطريقة المزايدة (الحراج)، حيث تتم المزايدة بين الراغبين في الشراء حتى تستقر على أحدهم. وأحياناً تكون الثمار مسعَّرة؛ أي محدودة بسعر ثابت لا يملك فيها المشتري إلا الاختيار فقط.

كما تباع بعض الأعلاف بالحصدة الواحدة كالبرسيم، أو بانقطاع عرقه، ويكون ذلك بعد عدة حصدات. وعلى الفلاح أن يسقي هذه الأعلاف على نحو ما كان يسقيها قبل بيعها، وتكون فترة انقطاعها، عادة، معروفة بالفصل أو السنة. ويعمد الفلاح، عادة، لمثل هذه الإجراءات التسويقية، إذا كان شيخاً كبيراً أو لا يستطيع أن يدفع للعمال أجر الحصاد والتسويق.

مسكن فلاح

مسكن الفلاح. تؤثر طبيعة المياه التي تقوم عليها الزراعة، تأثيراً مهماً في نمط مسكن الفلاح وتجمعات الفلاحين. فإذا كان مصدر المياه نبعاً كالعيون، فإن التجمعات الفلاحية تأخذ نمط القرى، ويختلف حجمها باختلاف كمية المياه المتدفقة، واتساع رقعة الأرض، التي يمكن أن تكون مسرحاً لاستصلاحها وزراعتها بالأشجار المثمرة الدائمة، كالنخل وأشجار الفاكهة، والمحاصيل الموسمية، كالحبوب والأعلاف والخضراوات.

أما إذا كانت المياه التي تقوم عليها الزراعة آباراً سطحية، فإن الفلاح، ربما ينزع إلى الاستقلال عن القرية في تكوين مسكن له ولعائلته ولبعض العاملين في الزراعة لديه. ولكن تبقى بعض مظاهر الاحتياط والترقب لأي نوع من أنواع التعدي على المزرعة وممتلكاتها، كوجود البئر داخل القصر وكذا أبراج المراقبة.

وفي بعض الأحيان تكون إقامة الفلاح موسمية في هذه القصور، والقصر

برج لمراقبة المزارع

هو البيت المبني من الحجارة أو الطين، وهي تسمية ليست مطلقة على مثيلاتها من المباني في كل مناطق المملكة، بل خاصة بمنطقة نجد، ثم يعود بعدها للقرية التي يشكل قصره وقصور غيره توابع لها. وإذا استثنينا المسجد الذي يكون فيه إمام ومؤذن، تدفع لهما مكافأة شهرية أو إكراميَّة سنوية أو شبه سنوية، وهذه لم تحدث إلاّ في السنوات الأخيرة؛ فإن نمط القصور لا يحوي أي مظهر من مظاهر بيوت السلطة المركزية أو الحكومة. أما نمط القرى فإنه يحوي بئراً أو مسقاة لمياه الشرب أو لوضوء الجماعة، وعليها محَّالة صغيرة، ودلو ورشاء وبجانبها قرو، ومسجد واحد بوسط القرية، وأمير؛ مركز إمارته منزله الخاص. وفي بعض القرى يوجد قاض؛ ومركز قضائه المنزل أو حيث المكان الذي به الإشكال أو المنازعة، وغالباً ما يكون القاضي معيناً لعدد من القرى. ويكون القضاء والفتوى في المسجد أو الشارع، وكثيراً ما تنتهي المنازعات بحلول شفوية يلتزم بها الجميع، لأن مبدأ التقاضي هو البحث عن الحَلّ لا عن التحليل، عند الفلاح التقليدي. أما منازل الفلاحين في المنطقة الجنوبية الغربية، فقد كانت في الغالب ضمن قرى لا تقل عن ثلاثة منازل. ويختار موقع القرية، عادة، في مكان مرتفع، محمي في بعض الأحيان بانحدار طبيعي. وتكون جدران منازل القرية،

مسجد قرية زراعية

في الغالب، مشتركة وطرقها مسقوفة أحياناً. وليس بالضرورة أن تكون أرض الفلاح قريبة من منزله، لأن الظروف الطبيعية وضيق الأرض الصالحة للزراعة قد تفرض غير ذلك. وللأسباب نفسها فإن البئر في الغالب لا تكون داخل القرية، وإنما يشرب المزارعون من أقرب بئر لهم، لأي مزارع كانت.

ويوجد في منطقة حائل نظام القصور الجماعية، وتسمى قصرْ أو دربْ، وهو قصر جماعي، يحتوي على عشرات بل مئات المنازل والأحواش وحظائر الأنعام، محاط بسور واحد مرتفع. وللقصر باب واحد، أو عدة أبواب، يغلق بعد دخول السكان بأنعامهم بعد صلاة العشاء الآخر. ولا يفتح إلا عندما يبدأ الفلاحون عملهم، قبل الفجر بساعة أو ساعتين، ثم يغلق مرة ثانية حتى قبيل طلوع الشمس، ثم يفتح بعد ذلك طول النهار. ويتناوب الإشراف على الباب، أو الأبواب، سكان القرية بالتناوب، وهذا الإجراء لدواعي الأمن عند اضطراب الأحوال. وهناك بعض المنازل سواء كانت منعزلة أو في مجموعات، مشيدة خارج القصر عند البساتين، وقد اتخذ أصحابها الاحتياطات الأمنية اللازمة لأنفسهم وأنعامهم.

ويتكون سكن الفلاح التقليدي، من طابق واحد أو طابقين في بعض الأحيان.

مبان حديثة في قرية زراعية جبلية

ويُبنى المنزل بالطين أو الحجر والجص المحروق. ويعد اللِّبن والعروق أو المداميك الطينية، المادة الأساسية في بناء معظم بيوت مناطق المملكة، ما عدا الأجزاء الجنوبية والمناطق الساحلية، كالقطيف والجبيل وتاروت والخبر والأحساء وينبع البحر، حيث تشكل الأحجار وبعض المواد الأخرى المواد الأساسية في البناء. ولعل توافر الأحجار كمادة للبناء في المناطق الجبلية الجنوبية الغربية، قد فرض البناء بها، كما أن توافر الطين في بقية المناطق هو ما دفع الفلاح لاستخدامه دون المواد الأخرى. وللأسباب نفسها استخدمت أغصان الأشجار في بناء العشش في بعض المناطق الساحلية، خاصة في تهامة الجنوبية. وكانت الأحجار تقطع من الجبال المجاورة وتشكّل بالمطرقه والمرزبَّه والفاروع، أمّا اللبن فيصنع بوضع كمية من الطين في قوالب خشبية مستطيلة، تسمى الملابن (جمع مَلْبَن)، ويخلط الطين مع التبن لزيادة تماسكه. ويترك اللبن تحت الشمس ليجف قبل استعماله.

ويسقف المنزل بخشب الأثل وعسبان النخل وجريده بعد إزالة خوصها. وترصف العسبان فوق الأخشاب بشكل محكم، وقد تستخدم النبوع أو الشطبان وهي شرائح جذوع النخل بدلاً من أخشاب الأثل. وفي بعض المناطق تحل

جانب من قرية زراعية

الفروش (الأحجار المسطحة) محل جريد النخل أو العسبان حيث توضع بشكل هندسي جميل فوق الأخشاب، لتكون قاعدة للطين الذي يشكل عادة سطح السقف في جميع الأحوال. وفي مراحل متأخرة حلت الأخشاب المستوردة أو المرابيع، كما يطلق عليها، وأشهرها أم حز محّل أخشاب الأثل والنبوع. وعلى كلٍ، فإن الأخشاب المستوردة لا تستخدم إلاّ على نطاق ضيق وفي بعض الغرف كالمجلس أو القهوه وهي غرفة استقبال الضيوف خاصة الرجال، لأن النساء لا يستخدمن المجلس. ولأن قدوم الضيف قد لا يسبقه دعوة أو ترتيب معين في معظم الأحيان في مجتمع الفلاح القديم، فقد اختص المجلس بموقع خارجي عن المنزل يشبه الملحق في عصرنا الحاضر، خاصة عند الموسرين. وفي المنطقة الشرقية كانت توضع فوق الأخشاب التي يسقف بها بعض الألواح الرقيقة المجدولة، والمعروفة باسم باسكيل، وتمد فوقها حصر تستورد من العراق، تعرف باسم منقور أو بواري، وهي مصنوعة من القصب المنسوج، ثم يوضع فوقها طبقة من الطين المتبّن، ثم توضع طبقة من الرماد لإكساب السقف مناعة ضد تسرب مياه الأمطار.

وتصرف مياه الأمطار الساقطة على أسطح المنازل بمعابر تسمى المرازيم أو

المزاريب أو الميازيب كما يطلق عليها في الأحساء، أو المثعب كما في وسط نجد، أو السَّرب في مناطق أخرى كالجنوبية. وتُصنع هذه المرازيم من جذوع النخل، نظراً لسهولة تجويفها كما يصنعها بعض النجارين من الخشب الطري، كالأثل الذي يسهل تجويفه أو أنواع أخرى كالسدر.

وطراز مسكن الفلاح التقليدي؛ مدخله، عادة، باب واحد كبير ومرتفع، ليسمح بدخول جمله أو حماره ومنايحه من الأبقار والأغنام إلى حوش جانبي مقسم إلى عدة أقسام، تأخذ أسماءها من أسماء الحيوانات الموجودة بداخله. فهناك حوش البقر، وهناك حوش الغنم، وهناك حوش الحمير. ويحتوي الحوش، عادة، على معلف أو مطعم، وهو مكان مرتفع على شكل حوض مستطيل، يوضع فيه نفيعة (عليقة) الحيوان من تمور رديئة كالحشف والنوى وأعلاف أخرى. كما تحتوي الأحواش على مرابط خاصة للبقر وربق للبهم لحفظها عن أمهاتها، وتطلق على أمهاتها فقط وقت الرضاعة. كما تحتوي الأحواش على بيوت للدجاج. ولا يلتصق هذا الحوش بغرف المسكن.

أما غرف المنزل فيأتي على رأسها، من حيث الأهمية، المجلس أو القهوة وقد تكون مستقلة عن المنزل، خاصة إن كانت العائلة كبيرة جداً تتكون من أب وأبنائه وأولادهم؛ وفي هذه الحالة تستقل ببابها وجميع مستلزمات القهوة، التي تعد، عادة، على النار مباشرة أمام الضيوف. وبعض القهاوي تكون معروفة لدى الجميع، وتأخذ لكثرة روادها من الناس صفة قهوة الجماعة. ولذا يعمد بعض روّادها إلى إحضار طبخته معه، وهي كمية من القهوة والعويدي أو الهيل تكفي لعمل دلَّة من القهوة، يشترك الجميع في شربها. وفي هذه المجالس أو المقاهي يتبادل القوم الأحاديث، ويدلي كل واحد بما صادفه خلال يومه، وما سيفعله في الغد، ويطلب المساعدة أو المعونة إذا كان يفكر في عمل جماعي. وقد يكون الوقت مناسباً للمفاوضات التجارية، أو التقاء الأصدقاء والأقارب.

أما عدد الغرف وتخصصاتها، فنادراً ما تكون واضحة، ما عدا غرفة النوم للفلاح وأولاده غير البالغين، وبعض الصفاف والغرف والسقائف والقبب التي تخزن فيها الأعلاف والتمور. ويتوسط هذه الغرف فناء واسع، يطلق عليه بطن الحوي أو المصباح، وفي معظم الأحيان لا يسقف ليكون مصدراً للإنارة والتهوية، خاصة أن الغرف ليس لها نوافذ جانبية نظراً لضيق الطرقات ولأسباب أمنية،

والمسقوف يسمى قبّه، ومن ألغازهم؛ وش بالقبّة؟ وجوابه عجوز منكبّه. وتأخذ الفتحات التي على الطرقات أو المساحات الخارجية أشكالاً مثلثة متساوية الأضلاع، قاعدتها أسفل ورأسها أعلى. ويحيط ببطن الحوي أو المصباح، رواق يقوم على مجموعة من السواري، وهي الأعمدة المبنية من الخرز، أي الحجر المدور والمطلية بالجص المحروق. ويعد الرواق مكان تجمع العائلة ونشاطها خاصة في فصل الصيف. أما مجموع مساكن القرية فتكون مقفلة على نفسها تحيط بها الأسوار والأبراج والقلاع للمراقبة والحراسة. وكانت لتلك الأسوار بوابات أو دراويز، تقفل في المساء وفي الأزمات والحروب. كما كانت بعض المنازل تسكن مشتركة بعدد من الأسر، لكل أسرة غرفة واحدة، وتطبخ كل أسرة طعامها في الحوي (الفناء) ويسمى مكان الطبخ موقدْ، وتحوي بعض البيوت تنوراً تخبز فيه المراصيع والكليجا، ولكل الأسر في المنزل مجلس واحد مشترك. وهذه الحالة تقتصر على كبار المزراعين من الملاك وغالباً ما تكون في القرى الكبيرة في نجد والأحساء والمدينة ونحوها. وهناك فئات أخرى كصغار الملاك أو العمال فلا تنطبق عليهم هذه الحالة لأنه ليس لديهم ما يجذب اللصوص فيخاف عليه وليس لديهم قدرة على بناء هذه القصور.

وفي البادية حيث الرعي، وفي هجر الغربية، تقام بيوت الشعر ومن حولها

بيوت من الشعر

معاطـن ومراح الإبل والأغنـام وتكون بيوت الشعر هذه إما محاطة بسياج من الأغصان الشائكة تفادياً لهجوم الذئاب أو ينام الرعاة بينها.

وفي كثير من القرى الحجازية تجمع المباني وتخترقـها أزقة ضيقة وتبنى إلى جوار الدور زرائب من جريد النخل أو الطين. وفي الأودية تبنى الدور متجاورة في مرتفع لتفادي السيول، وبجوار هذه الدور حظيرة للمواشي.

وكمثال فـسكن الفلاح في الـباحة مبني بالحجر ومسقوف بخـشب العرعر في إطار هندسي؛ فهو مستطيل تخصص مقدمته للضيوف وغرفه الوسطـى للنوم وتخزين المؤن والسلاح والأشياء الثمينة، أما المؤخرة في الداخل فتخصص للطبخ والرحـى، وأجزاء البـيت من الداخـل مكسوة بالطين ومطلية بمادة الشيدة، وهي تربة خاصة إذا خلطت بالماء يصبح لونها أبيـض لامعاً، وقـد تعمل فـي أسفل الجدران إلى ارتفاع مـتر نقوش ملونة، وقد تطور المعمار من هذا النمط بالحاق الحفر علـى جميع الأخشاب الـداخلية إمعاناً في الزينة، أما بهائم الفلاح فإنها تسكن في الدور الأرضي إن كان البيت من دورين، أو تـسكن في بـيت قديم يسمى السفل أو المراح.

ومن المزارعين من يتخذ في الصيف مسكنـاً مؤقتاً في وسط الـنخيل فيبـني بالعـسبان ما يـشبه الخيمـة حول جذع

بيت في منطقة زراعية جبلية

عَيْدانه؛ وهـي النخلة الفارعـة الطول، ويُسمى هذا المسكن العشه، وقد يُلحِقُ به مجلسا مسوراً بالعسبان يسمى صريفه. وهو بهذا يكون قريباً من الـنخل يسهل عليه الخَراف والجداد.

حيوانات الفـلاح. اعتمدت الزراعة التقليدية، التي سادت فـي نواح عديدة من شبه الجزيرة العربية على طاقة الإنسان والحيوانات المدربة لـلعمل في عمليات الزراعة الـتقليـدية المختلفـة. وقد كان لحيوانات، كالحمير والأبقار والإبل، شأن كبير في العمليات الزراعية التقليدية في المملكة في غيـاب الآلات ورأس المال؛ فمعظم العمـليات الزراعية تعتمد على طاقة هـذه الحيوانات كالحراثـة والسني والدياسة والنقل بأوسع صوره. كما تمد

الإبل من حيوانات الفلاّح

هذه الحيوانات الفلاح بالحليب ومشتقاته، وببعض ضـروريات عملياته الزراعـية؛ فهي توفر له مع حيوانات المزرعة الأخرى الأسمدة، كما يتخذ من جلودها الرشا والسريـح والغرب والقد لاستـعمالات مختلفة في الكَتَب والعلق، كما يدخل صوفها ووبرها وشعرها في استعمالات عديدة مستقلة أو مكملة، كبطانة القتب من الصوف والوبر.

من حيوانات الفلاّح

ولما كانت هذه الحيوانات (الإبل والبقر والحمير)، من أهم ما تعتمد عليها الزراعة التقليدية بعد الإنسان، اهتم الفلاح التقليدي بها اهتماماً يكاد يساوي اهتمامه بأفراد عائلته؛ فوفر لها المبيت المناسب في الصيف والشتاء، كما وفر لها الغذاء المفيد، بل لقد نوَّعه وجَدْوَلَه بما يتلاءم والعمل المنوط بها، إذ يتوقف نشاطها وأداؤها لمهمتها على نوعية العلف الذي يوفر لها، ومدى كفايته وتنظيمه. وتتكون الأعلاف التي تقدم لهذه الحيوانات من نتاج المزرعة أو أعشاب وشجيرات البراري المجاورة، خاصة في سنوات الخصب وسقوط الأمطار. وغالباً ما يكون أحد الصبيان مكلفاً بهذه العملية، وقد يقوم بها الساني. ولهذا كثيراً ما نجد العامل أو المالك في بعض مناطق المملكة يتضجر من الخروج نهاراً لجلب الحشيش من البر في موسم الربيع، أو الشويط من أشجار القتاد، التي تقطع في بعض المناطق وتحرق حرقاً خفيفاً لإزالة الأشواك التي تؤذي الحيوانات عند أكلها. وتتبع عملية جمع الحشائش البرية لتغذية السواني عمليات أخرى، تكشف عن اهتمام الفلاح بحيوانات سنيه، وهي عمليات التصفية التي تقوم بها النساء أحياناً إذا لم يكن لدى الفلاح عامل مخصص لهذه المهمة. وتتلخص التصفية في خلط الأعشاب مع بعض التبن، ثم تبلل وتربص بالماء لإزالة الأتربة العالقة بها.

نقل المحاصيل الزراعية

أما طريقة تعليف حيوانات السني وتنظيمها، فتكاد تكون متشابهة في مختلف مناطق المملكة، وإن اختلف نوع العلف المقدم من منطقة إلى أخرى. ففي المنطقة الوسطى تقدم وجبة مطبوخة في وقت السحر للإبل أو البقر، تتكون من الذرة أو الشعير والنوى (العبس أو الفصم) المرضوض ودبس التمر. ويطلق على هذه الوجبة دشيشْ أو دثيثْ أو نفيعه. ولهذا نجد الشاعر سعد بن محمد بن يحيى، يتمنى نزول الأمطار لينبت العشب في مدامث الرمل لتخف وطأة بحث الفلاح عن أعلاف لسانيته، كالشعير والعبس (الفصم) الذي يجلب، عادة، من بلاد بعيدة كالعراق أو مما يوجد محلياً؛ يقول:

شعير العراق يجنّبه ما يسومه
فشلٍ بتدبيره وفشلٍ بكيله
وراعي العبس ما خاشره في سهومه
ولا اوقف الناظر بوجه عميله

وفي فترة الظهيرة تقدم للإبل والبقر، وجبة العبيك التي تتكون من خبط مقطوع من شجر الطلح وعبس مرضوح، أي مرضوض، يخلطان معاً ثم يعجنان ويعبكان بتبن؛ وجاء ما يصور هذا الأمر في أمثالهم قالوا «مثل رضاح العبس»؛ ويضرب لمن يتخاذل في نهاية الأمر؛ إذ يحكى أن رضاح العبس قال تعبت، وألقى بآخر نواة فلم يرضحها. ومن ذلك قولهم أيضاً «دقّاق حِمْل الفصم ما يعجز عن فصمه» الفصم: النوى، فمن يستطيع أن يدق حمل بعير منه لا يعجز عن دق فصمة واحدة؛ ويضرب المثل في أنّ من استطاع أن ينجز أكثر الأمر وحده، لن يعجز عن إنجاز الجزء القليل الذي تبقى منه؛ وقد أشار إلى الخبط، وهو المكون الرئيسي لهذه الوجبة، عبدالله اللوح (لويحان) بقوله:

انا بين جلوى والمحانيق وام القور
أسير بفاسي والله ابخص بالاحوال
حداني على قطع الخبط رزة الناعور
وانا قبل ارزه، سالم الدين واشوى لي

ويختلف ما يقدم للإبل من أعلاف في منطقة حائل، عنما يقدم في المنطقة الوسطى. ففي حائل تتكون الأعلاف من ثلاث وجبات؛ الوجبة الأولى الغداء وتقدم قبل طلوع الشمس أو أذان الفجر، والوجبة الثانية تقدم عند أذان الظهر وتسمى الهجور، والوجبة الثالثة وتقدم بعد غروب الشمس، وهي العشاء أو النفيعه، إذا تيسرت من ذوي اليسار، فتقدم قبيل النوم وخاصة في ليالي الشتاء الطويلة، التي تحتاج فيها السواني إلى ما

يبعث فيها الدفء من العلف المخلوط بالطعام كالتمر أو الفصم المدقوق أو المجروش وغيره، إذ المعروف أن الحيوان، على عكس الإنسان، يشعر بالدفء أثناء الأكل. ويتخلل الوجبات الثلاث ما يستطيع الفلاح الحصول عليه من مزرعته. أما سانية الحمير فعلفها التمر إذا تيسر، ويسمى النفيع مع الحشيش والقت (البرسيم).

وفي المناطق الجنوبية الغربية من المملكة، تقدم للأبقار عند السحر وجبة يطلق عليها ضحى، وعند الظهيرة وجبة أخرى تسمى الغدوه أو الغدا. وتتكون الوجبتان من الذرة والتبن والحشيش وقليل من البرسيم. وفي بعض الأماكن في الأجزاء الجنوبية الغربية من المملكة تعطى حيوانات السني وجبات مطبوخة تتكون من نخالة الذرة والشعير والقمح مع بقايا سنابل الذرة الرفيعة أو الصفراء، وتقدم قبل المغرب مرة أو مرتين في الأسبوع، ويطلق عليها فَرِيْقَه أو دشيشه.

ولأن حيوانات السني قد تظل، أحياناً، طوال الأربع والعشرين ساعة في المنحاة، على حد قول محمد بن سليمان:

نهارها مع ليلها دب دامه
نهينها للزرع غصبٍ بلا طيب

فإن الفلاح التقليدي قد اكتسب من مهنته خبرة مؤداها أن نشاط السانية وصبرها في السني، يتوقف على كفاية العلف وتنظيمه. وعلى قدر نشاط السانية وقدرتها على مواصلة العمل تكون وفرة الإنتاج. لذا اعتمد الفلاح برنامجاً غذائياً أثناء العمل أو السني أسماه التلقيم أو التعليف، نظراً لحاجة الحيوان للغذاء ولكن الوقت لا يسمح بالتوقف. ولبرنامج التلقيم الغذائي للسانية من الإبل والأبقار فترتان؛ الأولى فترة الضحى في المسنى أو المنحاة، حيث تقوم المرأة في معظم الأحوال بهذا العمل. فتقف بجانب المعدل أو المقام ومعها زنبيل فيه حشيش، كالعرفج أو غيره مما يحش من البرية أو يجمع من المزرعة، فإذا بلغتها السانية ووقفت عند المعدل، أخذت المرأة بخطام السانية وناولتها لقمة (دحروجه) قد جهزتها من قبل، تسمى القيول في الأحساء. والفترة الثانية للتلقيم تكون بعد صلاة المغرب، وبعلف يشبه ما قدم في الفترة الأولى أو فترة الضحى. ومما تجدر الإشارة إليه أن تلقيم الفترة الثانية قد لا يكون في المسنى، إذ يلي التوقف عن السني ويسمى الإيضاع أو التعقيل أو الحطه، وقد يكون في المسنى

السواني

إذا أريد مواصلة السني إلى ما بعد العشاء، أو حتى بعد ذلك في أوقات معينة.

وفي المناطق الجنوبية الغربية من المملكة، تقدم وجبات غذائية لحيوانات السانية أثناء السني، يطلق عليها التطعيم أو التلقيم حيث تلقم الأبقار من قبل النساء اللواتي يجلسن في نهاية المداح أو المنحاة أو المجرّه ومعهن قطع صغيرة من الذرة الخضراء أو الجافة الملفوف عليها قليل من البرسيم أو من نبات يؤخذ من جوانب الأودية، يدعى الغيله في بعض المناطق، وهو غذاء جيد للأبقار. وتستمر فترة التلقيم لمدة ساعة أو ساعتين. وأما الإبل فإنها تلقم في هذه المناطق باستمرار، أثناء السني، أو نقل الحجارة لبناء بيوت المزارعين.

وإذا كان العلف يثقل كاهل الفلاح بالدين، سواء بالاستدانة لشرائه أو بالتعب للحصول عليه، فإن نزول الأمطار وإخصاب الأرض ونمو الأعشاب في البراري يخفف عن كاهله هذا الحمل؛ على حد قول شاعرهم سعد بن محمد اليحيى:

يجيه مخلاصه بليا خصومه
والستر يشرونه رجال القبيله
ومن كان له مطلب خلص في يمومه
وتواضعت عنا الحمول الثقيله

وعلى الرغم من ذلك فعلى الفلاح، من جانب آخر، استغلال الفرصة لجمع

الأعلاف من البراري، وتوجيه أفراد عائلته أو صبيانه للحش من البراري، وتجميع ذلك العلف في مخازن تسمى الصفاف، (مفردها صفّه) أو الدور (مفردها دار). ويستخدم هذا المخزون من الأعلاف وقت الجدب، كما يخزن الفائض من إنتاج أعلاف المزرعة في هذه الصفاف بعد تجفيفها بالشمس للغرض نفسه. وفي كثير من الأحيان يستأجر الفلاح امرأة لدق العلف وتقطيعه، إذا كانت سوانيه كثيرة أو لا يريد أن يتعب زوجته وبناته، وأحياناً تكون أجرة هذه المرأة من ثمرة الموسم، وتسمى المرأة المستأجرة الدَّقَّاقه أو المعلفه. ويدق العلف بأداة حديدية تسمى الحيف. كما تسمى المخشله أو المقراضه ولها مقبض من خشب، ولكن بعضها له مقابض من حديد.

ومن مظاهر اهتمام الفلاح التقليدي بحيوانات سنيه، إشرافه المباشر على تمريضها، عندما تتعرض لمرض كالجَرَب أو الدَّبَره. وكانت وسائل بيطرته بدائية وتقليدية كزراعته. فالدَّبَر الذي يصيب حيوان السني، هو آثار اكتراب القتب الذي يربط به الرشا، ويعالج بحرق روث الحيوان نفسه وذره على الدَّبره؛ ولهذا قالوا في أمثالهم «يفت من بعره ويحط على دبره»، ويقولون «من بَعْره فتوا على ظهره» أو «خذ من بعره، وفت على ظهره». والسلاق وهو إسهال يصيب حيوان السني، يعالج بكي جنوب الدابة وحول ضلوعها. ومثله الخُرَّاج الذي يظهر في الرقبة والنحر إذ يعالج بالكي. أما الجَرَب الذي يصيب سانية الإبل، فيطلى بالنُّورة وهي أحجار تدق وتطبخ ويضاف لها السم أو الزرنيخ، أو يعالج بالقطران المستقطر من الأخشاب كما هو الحال في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة. كما يعد التجليل ظاهرة من ظواهر اهتمام الفلاح بحيوان سنيه. والتجليل وضع ساحة، وهي قماش مسدوّ من الصوف، أو وضع خيشة على ظهر الدابة وذلك في حالتين؛ الأولى عندما يكون الجو بارداً، وحيوانات السني في العراء تحت النجوم أي لا يوجد لها غرف خاصة للمبيت. والثانية عندما تكون الدابة ضعيفة، فيلازم ذلك، عادة، سقوط شعرها أو وبرها فتصبح أكثر تعرضاً لآثار البرد.

ويحافظ الفلاح على حيواناته المختلفة فيدخلها الأحواش فيحميها من هجمات الذئاب وربما استعان بكلب حراسة، وهو أيضاً يحمي مزرعته منها ومن غيرها بوضع الحواجز والردائم، والردامة هي عارضة من الخشب تسد بها الطرق وأبواب الحظائر، ويجب أن

تكون الردامة قوية تمنع تجاوز الحيوانات؛ وقالوا فـي المثل «ترى الردامـه خوص» كناية عن ضعف الحاجز وأن الأمر أسهل وأهون مما هو ظاهر للعيان.

كما يعمد الفلاح إلى إدخال حيوانات سنيه، خاصة الإبل، في المجباب، وهو وسط بيته أو في أماكن خاصة بها، لأجل حمايتـها من البرد أو الظروف المـناخية الأخرى، كالمطر الغزير ونحوه.

وإذا كانت الإبل والأبقار والحمير قد لازمت الفلاح التـقليدي في العملـيات الزراعية العديدة، فهناك حيوانات أخرى كانت تربية الفلاح لها خاصة بالاستفادة من ألبانها ولحومها وأصوافها وشعرها؛ كالماعز والضأن والأبقار الحلوبة، ولغرض الاكتفاء الذاتي في أضيـق صورة. ومن هنا فسوف نتناول حيوانات المزرعة حسب الهدف من تربيتها.

أمّا هذه الحيـوانات؛ الإبل والأبقار والحميـر، وإن اشتركت فـي تصنيـفها كحيوانات خدمة، فإن لبعضها نوعاً من التخصص أو الانفراد في أداء خدمة حقلية معينة. فالإبل والأبقـار مثلاً تشترك في عملية السني في جميع مناطق المملكة، ما عدا منطقة الأحساء. أما الحمير فتشارك في هذه العملـية في بعض المناطق مثل الأحسـاء والقـطيف، وفـاقاً لمـا أجراه الباحثون من مقابلات شخصية. وعلى النقيض من ذلك نجد الحمير هي الحيوانات المفضلة في عمليات الدياسة والركوب،

الدياسة بالحمير

ونقل مستلزمات الفلاح كالسماد والطين وغيرها في المنطقة الشرقية والمنطقة الوسطى من المملكة، وإن كانت تستخدم الأبقار والإبل على نطاق ضيق. ويمكن رصد أسباب الاختلاف بين الحيوانات في القيام بالعمليات الزراعية والسيطرة الإقليمية لحيوان على حساب آخر؛ فمن هذه الأسباب الخصائص الخَلقية والخُلقية لحيوان السانية، فحافر الحمار، مثلاً، وقدرته على الدياسة جعلته مفضلاً في المنطقتين الوسطى والشرقية، في عمليات الدياسة، على عكس الأبقار ذات الأظلاف والجمال ذات الاخفاف. وذكاء الجمل وسرعته على التعلم والانقياد والطاعة العمياء في مجال السني، جعلته يفضّل على الأبقار والحمير. فالمربوعة إذا جاءت وغطت غروبها في الماء ونزَرها، أي صاح بها الساني أعطته وجهها ثم سجرت ووقفت والغروب لا تزال في البئر، ثم نزعت وكل غرب نصا دراجته، أي اتجه إليها فلا تتشابك الغروب. وإضافة إلى ذكاء الإبل وسرعتها في التعلم، فإن قوتها وقدرتها على نزع ما كبر من الغروب، مقارنة بحيوانات السني الأخرى كالأبقار والحمير، تزيد في أهميتها وتجعل المزارعين يفضلونها على سائر الحيوانات الأخرى.

وعندما يكون مستوى الماء الجوفي في المناطق الزراعية عميقاً، يعتمد الفلاحون على الإبل، لإنها أصبر من غيرها وأقوى، أما المناطق ذات المياه القريبة من السطح، كما هو الحال في الأحساء والقطيف، فإن الأبقار أو الحمير تكون كافية للسني عليها.

ويتدخل المستوى المعيشي لأهل المناطق واختلافه من منطقة إلى أخرى، في إيجاد هذا التنوع أو الاختلاف في استخدامات حيوانات خدمة بعينها، أو سيادة حيوانات خدمة في منطقة دون أخرى. وكذلك النظرة الاجتماعية لاستخدام حيوان بعينه في عملية زراعية بعينها. فالمناطق الشمالية في المملكة يستهجن الناس فيها استخدام الحمير في السني، إلا في حالة فقر المزارع بحيث لا يستطيع شراء أو استكراء الإبل للسني، وقد يجمع بينهما بالإضافة إلى الأبقار في المنطقة الوسطى وكذا الجنوبية.

كما أن الاختلافات الإقليمية في كيفية استخدام حيوان الخدمة في العملية الزراعية كان لها أثرها في اختيار الحيوان. فربط حجر تجره الأبقار في عملية الدياسة في الجنوب، جعل الأبقار هي المسيطرة في هذه العملية في جنوب غرب المملكة، ولكن لا تعرف هذه الطريقة في الوسطى

أو الشرقية أو الشمالية، ولهذا سيطرت الحمير لتميزها في حوافرها.

وبجانب الحيوانات المستخدمة في العمليات الزراعية المختلفة، حرص المقتدرون من المزارعين على امتلاك وتربية أعداد أخرى من الحيوانات لأغرض أخرى، غير المشاركة في العمليات الزراعية، كالحصول على الألبان واللحوم والسماد والجلود. وكان كل مزارع يربي من هذه الحيوانات والدواجن على قدر استطاعته، وحسب المساحات الزراعية التي يمتلكها. إن امتلاك مساحات زراعية أكبر، يعني إنتاجاً أكبر، ويعني مردوداً مادياً أكبر، ويعني قدرة على توفير أعلاف للحيوانات التي تربى في المنازل. وفي المزارع التقليدية كان التركيز على تربية الأغنام من ضأن وماعز، لأنها لم تكن بحاجة إلى أعلاف وإنما كانت ترعى غالباً في المناطق القريبة من المنازل، وربما كان هذا سائداً في كل المناطق. وبالإضافة إلى الأغنام كان أكثر المزارعين يربون أعداداً قليلة من الأبقار، وبعضهم يربي أعداداً من الإبل، كل بحسب إمكاناته. وهناك اختلاف بين تلك المناطق في التركيز على تربية أنواع معينة من الحيوان دون غيرها؛ فإذا نظرنا إلى المنطقة الجنوبية نجد أن السائد تربية الضأن والماعز، خاصة

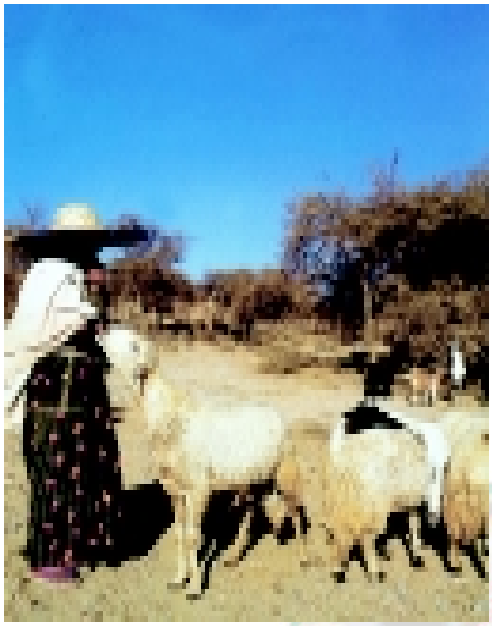

تربية الضأن

منطقة السراة من الطائف حتى نجران، حسبما تسمح به إمكاناتهم المادية وأعداد أفراد أسرهم؛ فكلما زاد عدد أفراد الأسرة، كان بالإمكان أن يرعى بعضهم الأغنام في الأماكن البعيدة، والبهم (الصغار) في الأماكن القريبة. وكان يقوم بهذه المهمة الأطفال فوق سن الثانية عشرة من البنات والبنين، أمّا الكبار فيشتغلون بالأعمال الزراعية.

وكانت أعداد الضأن في هذا الجزء، أي في منطقة السراة، غالباً أكثر من الماعز، لمشقة متابعة الماعز ورعايتها، ولأنها تتسلق الجبال، وتبتعد عن الرعاة من صغار الأطفال؛ بينما نجد في تهامة

الجبلية، الواقعة مباشرة إلى الغرب من جبال السراة، زيادة في أعداد الماعز لأنها منطقة تلالية ضيقة الأودية، كما أن الغالبية العظمى من أنماط الزراعة تعتمد على الأمطار، ولذلك ليس هناك عملية ري إلاّ لمدة أربعة أشهر خلال المواسم الزراعية، فيكون لدى المزارع وقت لرعاية الأغنام ومتابعتها بنفسه. وإذا انتقلنا إلى الساحل الغربي نجد التركيز يعود مرة أخرى على الضأن، لانبساط الأرض وخطورة الماعز على المزروعات لعدم وجود حواجز حول المزارع. وهكذا الحال عند معظم المزارعين في المنطقة الوسطى والشرقية والشمالية.

يتضح من العرض السابق أن الأغنام تعتمد على الرعي تماماً، ولا تقدم لها أعلاف من المزرعة إلا نادراً. ويبدأ نهار الرعي عند شروق الشمس، ويقوم الراعي، سواء أكان ابناً أم بنتاً أم كليهما، حسب عدد الأغنام، بتسريح الأغنام إلى المرعى من قريته، وقد يكون معه مجموعتان أو أكثر من أهل القرية يتجهون إلى إحدى المناطق المجاورة الغنية بالأعشاب، التي قد تبعد عن القرية مسافة تصل إلى ١٠كم. ويُحذَّر الرعاة من خلط الأغنام بعضها مع بعض، كما يحذرون من الاجتماع واللهو، حتى لا تضيع الأغنام، أو تتعرض لهجوم الذئاب في غفلة من الرعاة. ويوصى الراعي دائماً بعدِّ غنمه بين كل فترة وأخرى للتأكد من عدم فقدان إحداها أو بعضها في أحد الشعاب أو الأودية أو التلال. ويأخذ الراعي معه كسرة من الخبز ليتغدى بها. وإذا كان الوقت صيفاً ينصحون الراعي بأن يأخذ فترة راحة وقت القيلولة لمدة ساعتين، حيث يظلل الغنم تحت الأشجار المتوافرة، ثم يبدأ بعد ذلك في العودة على مهل تجاه البيت سواء من الطريق الذي سلكه في الذهاب أو طريق أخرى قريبة ليصل إلى البيت قبل ساعة أو نصف ساعة من الغروب.

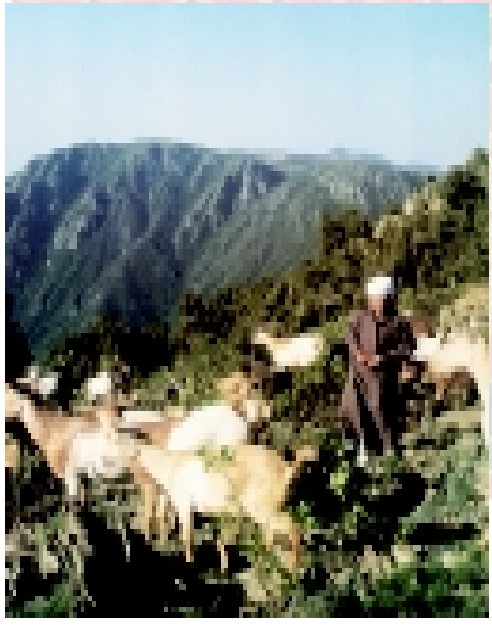

طفل يرعى الماعز

وفي بعض القرى، خاصة في المناطق الوسطى والشرقية، قد يكون لكل قرية شاوٍ (راعٍ متخصص) يكون، عادة، من أهل البادية القاطنين في القرية أو جوارها، يتولى رعي أغنام القرية لقاء أجرة معينة عن كل رأس. وعادة يتولى الراعي رعي الغنم من طلوع الشمس حتى قبيل غروبها، حيث يعود بها إلى ساحة متوسطة في القرية تدعى المْرَاحْ حيث يأتي أصحاب الغنم، خاصة من الأطفال، لأخذ أغنامهم. وفي بعض الأحيان تعود الأغنام من هذه الساحة إلى بيوت أصحابها فيفتح لها إن سمع صوتها، وقد تحرك الباب أو حلقته أو مطرقته لإشعار أهل البيت بها.

وفي كل الأحوال عندما تصل الأغنام إلى المنزل، تبقى في الساحة المقابلة للمنزل المخصصة لذلك، حيث تقوم النساء بحلب الأغنام ويُبقين على قليل من الحليب لتتغذى عليه البهم. وبعد الغروب تدخل الأغنام إلى الجزء السفلي من المنزل أو إلى حظائرها الخاصة، إذا كان الوقت شتاءً أو تترك في الفناء أو في ساحة خارج المنزل محاطة بسياج، إذا كان الوقت صيفاً. وفي صباح اليوم التالي تحلب النساء الأغنام مرة أخرى قبل إطلاق صغارها للرضاعة وتسريحها. وتقوم النساء في بعض المناطق بتنظيف المكان، الذي باتت فيه الأغنام، من السماد وإخراجه إلى مكان مخصص لذلك، قريب من المنزل، ليجف ويتجمع ويهيأ لنقله إلى المزرعة فيما بعد. أما البهم فيتولى عادة أحد الأطفال أخذها للمرعى الذي لا يبتعد عن المنزل بأكثر من كيلو متر واحد، وقد يرعى حول المزارع ويعود وقت القيلولة إلى المنزل، ثم يأخذها إلى المرعى مرة أخرى قبل العصر بقليل.

وعندما تقل الأمطار بحيث تصل إلى درجة تصعب معها الزراعة في موسم من المواسم، خاصة في المناطق المعتمدة في زراعتها على الأمطار، وتقل الأعشاب في المناطق القريبة من المنازل والقرى، فإن المزارعين أصحاب القطعان الكبيرة التي تتعدى الخمسين رأساً، يبحثون عن منطقة يكون فيها العشب أوفر حتى لو كانت بعيدة (٣٠-٥٠كم) عن القرية. فيذهب إليها أحد أفراد الأسرة من الرجال مصحوباً بقطيع الأغنام. وإذا كان في الإسرة عدد من الإخوان فيذهب أحدهم، وربما يصطحب أسرته معه. وقد تذهب مجموعة من الرجال من قرية واحدة وينزلون في المكان المتوافر فيه الكلأ والماء، وأحياناً يبنون غرفاً صغيرة لا يزيد ارتفاعها

عن متر أو متر ونصف، تسمى سقيفه، (الجمع سقايف) يدخلون فيها الأغنام. وقد يدخلونها في بعض المناطق إلى عشش أو أكواخ بدلاً من السقائف كما هو الحال في تهامة. وقد يستخدمون بيوت الشعر ولكن في حالات قليلة. وفي هذه الحالة يعيشون حياة البادية لفترة مؤقتة، ويتناوبون على إحضار المؤن كل أسبوع تقريباً من منازلهم على الإبل والحمير. ويظلون على هذه الحال لمدة قد تصل إلى أربعة أشهر، فإما أن ينزل المطر على منطقتهم ويعودون، أو يبقون في المنطقة التي نزلوا بها إذا توافر بها الماء والكلأ، أو ينتقلون إلى منطقة أخرى. ويسمى المزارعون الذين ينتقلون بأغنامهم مؤقتاً العزُوب؛ ويقولون إن فلاناً أعزب بغنمه في المكان الفلاني فهو عازب. وحياة العزوب حياة شاقة وصعبة لأنهم يتعرضون للشمس والأمطار والمبيت في العراء، ولذلك يقولون عن الشخص الذي يحيا حياة شاقة وغير مستقرة بأن حياته حياة عزوب.

وهناك أهداف عديدة من تربية الأغنام، يأتي في مقدمتها الاستفادة من لحومها؛ إذ لم يكن المزارعون يتعمدون ذبح الأغنام بهدف الحصول على اللحم للأسرة بشكل دوري، بل قد يمر حوالي شهرين أو أكثر دون أن يحدث ذلك. فدخول اللحم في الوجبات اليومية كان قليلاً، رغم كبر أعداد أفراد بعض الأسر. وإذا لجأوا إلى ذبح الأغنام فإنهم يذبحون عادة الكبيرة في السن أو التي لا تلد. ولكن عند قدوم ضيف من أي مكان، حتى وإن لم يكن معروفاً، فإن المزارع الذي يملك أغناماً لا عذر له في أن يقدم لضيفه غير الذبيحة، وإلا نعت بالبخل. وحتى من لا يملكون أغناماً يلجأ كثيرٌ منهم للشراء لإكرام الضيف.

ومن الأهداف الأخرى لتربية الأغنام في بعض المناطق استخدامها في المناسبات الكبيرة. والمناسبات الكبيرة متعددة وهي التي قد تحتاج إلى حوالي عشرين رأساً من الضأن أو الماعز أو منهما معاً. ومن هذه المناسبات حفلات الزواج وبناء المنازل. فبناء منزل يحتاج على الأقل إلى ستة أشخاص، يحتاجون إلى ثلاث وجبات يومية، ولا بد أن يدخل اللحم على الأقل في وجبة واحدة منها. وقد يستغرق بناء المنزل حتى الانتهاء منه حوالي شهرين أو أكثر، حسب حجم المنزل، ولذلك فلا بد من ذبيحة على الأقل كل أسبوع. وكذلك الحال عند النيِّة في حفر إحدى الآبار؛ فالمزارع عندما ينوي بناء منزل

جديد أو حفر بئـر جديدة، لا بد من التهيئة قبل ذلك بمدة لا تقل عن عام. وهناك هدف آخـر من تربية الأغنام، هو بيـع أعداد منها عـند الحاجة إلـى النقود. وكان البيع يـنشط في الغالب في موسم الحـج لاستغلالها أضاحيَ وهدياً؛ إذ يهتم بعض الباعة بتجميعها والذهاب بـها إلى مكـة لبيعهـا على الحجاج، لأن قيمتها ترتفع أثناء موسم الحج. كما أن تربية الأغنام لدى المزارع توفر له أشياء أخرى كالحليب والسمن والإقط والجلود، إضافة إلى الاستفادة من سمادها.

وعـلى كـلٍ، فإن هـذه الأهداف مجتمعة تدعو المزارع إلى تربية الأغنام، وهي شائعة لدى المزارعين، إلا أنه ليس بمقدور كل مزارع تربيتها؛ ويعبرون عن حبهـم لتربية الأغـنام بقولهم «الـغنم غنـيمه، وسـاحتها كـريمه». كمـا أن أعدادها تتفاوت حسب قدرة المزارع على توفير الـرعاة لها، وهذا مرتـبط بكبر الأسرة وسعة الأملاك الزراعية. وكان بـعض المـزارعـين من ذوي الأمـلاك الزراعية الواسعة إذا لم يتوافر لديه رعاة من أسرته، يـستأجر راعياً مـن الأسر الكبيـرة العدد التي ليس لديـها أملاك كبيرة أو من البادية. وهناك طريقة أخرى كان يتبعهـا مثل هؤلاء المزارعين وهي الاتفاق مع أحد سكان البادية على أخذ قطيع من الأغنـام وتربيتها بالمشاركة؛ وتسمى هذه المشاركة الـشيَّه في بعض المناطق كالوسـطى، وتسمى شركْ في المناطق الجنوبية؛ ويقولون «فلان أشرك غنمه» أي أعطاها لبدوي بالمشـاركة بما تم الاتفاق عليه. وفي هذه الحالة يستفيد البدوي من المزارع بما يحصل عليه من حبـوب وقت مواسـم الحصاد، وفـي الوقت نـفسه يحصـل على الثلث أو النصف مـن الأغنام من خلال تربيـته لها. كـما أن المزارع يحصل عـلى ما يحتاجه من ذبائح للأغراض المختلفة؛ وهناك ثـلاث حالات للشيَّه؛ الأولـى وتسمى الوْدَاعَه أو الوديعه وهي أن يعطي الفلاح للبدوي عدداً من الإبل أو الغنم ليرعاها حتى يحتاج إليها الفلاح ويدفع له أجراً مقابل سقيها ورعيها والمحافظة عليها، ويتحمل الفلاح أيضاً ما يترتب عليه من قيمة أعلاف كالشعيـر ونحوه أو علاج بعض الحيوانات المصابة بالجرب مثلاً. والثانية وتسمى العدوله (جمعها عدايل) وهي أن يعطي الفلاح للبدوي عدداً من الأغنام عدوله فيرعاها ويسقيها ويحـفظهـا بدون أجر ويـستفـيد من أصوافها وألبانها. والناتج من أولادها

يكون بينهما مناصفة أما الأمهات فتؤول للفلاح وبعد مدة يتقاسمان الناتج بينهما. وقد تطلق العدولة في بعض المناطق على تلك التي يعطيها البدوي للفلاح ليستفيد من حليبها وتسمى المنيحه أيضاً. والثالثة الرِّباته وهي أن يشتري البدوي من الفلاح مثلاً تمراً أو عيشاً ويعطيه جزءاً من القيمة ويُبقى شيئاً منها فيقول الفلاح للبدوي إنّ المبلغ المتبقي أريد أن تشتري به رخْلاً من غنمك أو غنم جيرانك وتدعه معك رِباته، فهي وما ينتج منها بيننا مناصفة، وَليس للبدوي أجر على ذلك. وبعد سنتين أو ثلاث قد تصبح الأغنام قطيعاً فيتقاسمانه بينهما.

وبعض سكان الهجر حَوْلَ المدينة المنورة إذا دنا الصيف تخلصوا من الذكور والعاقر من أغنامهم وهبطوا بها إلى القرى لبيعها وشراء تمور ومنافع أخرى بأثمانها وضموا ما بقي من أغنامهم ومواشيهم إذا كانت قليلة إلى رعاة آخرين مقابل أجر حتى يقضوا فترة الصيف في القرى المجاورة، أما إذا كانت كثيرة فيتركون بعضهم لرعايتها أو يؤجرون أحد الرعاة لرعايتها.

وأما تربية الأبقار، لغير غرض استخدامها في العمليات الزراعية، فكان أمراً شائعاً في أغلب مناطق المملكة، خاصة في منطقة الأحساء، ولكن الأعداد تختلف بين منطقة وأخرى وبين مزارع وآخر. وهذا الاختلاف يعود إلى طبيعة السطح، ففي المناطق القريبة من الساحل في تهامة، وكذلك في المناطق الوسطى والشمالية والشرقية، قد يربي المزارع أكثر من بقرتين، والسبب في ذلك يعود إلى وجود المراعي لانبساط الأرض، وهذا يخفف من عبء توفير الأعلاف بشكل كبير سواء أخذت البقر إلى المراعي أم جلب من المراعي ما يمكن استخدامه غذاء لها. أما في منطقة السراة فيندر أن يربي المزارع أكثر من بقرةٍ واحدة، لأن تربية الأبقار تكون داخل المنزل وليس هناك مجال لرعي الأبقار. فالمنطقة جبلية وعرة، وتربية أكثر من بقرة يعني زيادة في الأعلاف لأن من يربي بقرة غالباً يكون لديه على الأقل ثور واحد، لأن الحاجة للثور أهم لاستخدامه في العمليات الزراعية.

وكان المزارعون في كل مناطق المملكة يربون الدجاج، ولكن بأعداد قليلة ربما لا تتجاوز الثلاثين. وكان الهدف الاستفادة منها في أوقات متباعدة للحصول على لحومها. أما البيض الذي هو قليل أيضاً فلم يكن هناك قدرة في معظم مناطق

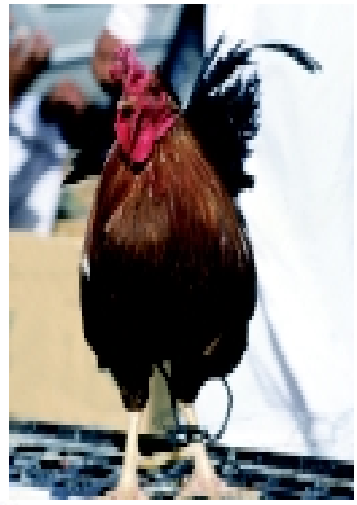

من دواجن الفلاّح

المملكة على الاستفادة منه، إلا في خلطه مع بعض المواد لاستخدامه في علاج أو ما شابه ذلك، ولذلك فإن البيض يترك للتفريخ فتفريخه لقلته أجدى عليهم. وما كانوا يقدمونه إلا لعزيز أو زهاباً مؤقتاً للمسافر. وفي بداية دخول السيارات للمملكة كان السائق لأهميته يحظى بتقديم البيض له مع طعامه، ولا ينال هذا بقية المسافرين. ولم يكن المزارع يقدم غذاء للدجاج، إنما يتركه يخرج إلى المزرعة لالتقاط ما يمكن التقاطه من حبوب متناثرة وغيرها. وكان المزارع يحرص على ألاّ يخرج الدجاج إلى المزرعة بعد البذر مباشرة لمدة أسبوع، حتى لا يستخرج الحبوب من الأرض المبذورة، وحتى لا يبعثر السواقي والأحواض المقسمة.

وفي الأحساء تربى الدواجن في المنازل فقط ولا يسمح لها بالخروج. ويحرص المزارع على وجود ديك في المنزل لأنه ينبه أهل بيته للصحو عند طلوع الفجر ووقت السحر في رمضان؛ ولذلك يضرب المثل في التبكير بأن فلاناً يقوم إلى العمل، أو يذهب إلى السوق وقت أذان الديك. على أن الاهتمام بتربية الدجاج في المنازل ربما زاد منذ أربعين سنة بعد انتشار المدارس، وقدوم أعداد من المدرسين من خارج المملكة يحرصون على أكل البيض والدجاج؛ فاهتمت النساء بتربيته لهذا الغرض، حيث يأخذ أبناؤهن من تلاميذ المدارس الدجاج والبيض إلى المدرسين وكان هذا الأمر شائعاً في معظم مناطق المملكة. وفي الباحة يستخدمون البيض عندما تصنع النساء خبزاً من النوع السميك جداً فإنهن من باب التكريم لآكليه يضعن بضع بيضات داخل الخبزة الواحدة فينضج في داخلها، كما يُتناول البيض نيئاً في حالة الإصابة بألم الظهر أو كسر أحد العظام، وقد أفاد أحد بنائي الحجر أنه قد اشترى بريال عشرين بيضة وامتص ما بداخلها دفعة واحدة ظناً من أهل ذلك الزمان أنه مصدر قوة وفحولة.

وإلى جانب الزراعة فإن بعض الأسر في الباحة مثلاً كانت تُعنى باقتناء الجمال لأنها وسائل اقتصادية مهمة في ذلك الوقت، والمعاملة منحصرة بين الرجل والجمل إذ يذهب به إلى كل من الطائف أو بيشة إما عند تأجيره للتجار والمسافرين وإما لنقل تجارة صاحبه، والمهمة غاية في الصعوبة؛ وقد صور الشاعر محمد بن ضيف الله الكبيري حالة الجمال شعراً فقال:

والله لو ياكل الجمّال من كل فن
ويقل ياوكيل البيت زادي لباب
ويصب العسل من فوق سكر نبات
ما يسره وحذيانه لها قربعه

فرد عليه آخر:

درب بيشه على الجمال قد كلفن
والتعب جا على الجمال من كل باب
يالله العفو طول الليل ماشي مبات
انحن اثنين نمشي والجمال أربعه

وفي جزء القصيدة الأولى يشير الشاعر إلى أنه لو كان طعام الجمَّال مما لذ وطاب فإنه لا يسرّ ولا ينفعه وحذيانه تقربع من كثرة السير خلف الجمل، أما في الجزء الثاني فيمعن في الشكوى من التعب حتى أن الجمال أربعة وليس معها سوى اثنين من الرجال ومع هذا لا يستطيعان ركوبها لأنها محملة بالمؤن والبضائع.

الحالة الاجتماعية

تختلف النظرة الاجتماعية للفلاَّح من شريحة اجتماعية مهنية إلى أخرى. وعموماً تعد الزراعة إلى جانب التجارة والرعي والصيد البحري (الغوص) والجمالة، مهناً أساسية ومجالاً من مجالات العمل التي عرفت في الجزيرة العربية، ومن ثمّ صنفت اجتماعياً بأنها مجالات عمل شريفة.

علاقة الفلاح بالكالف. أُولى شرائح المجتمع، التي تُقيِّم النظرة إلى هؤلاء العمَّال أو الصبيان، الفلاحون أنفسهم إذ يؤثرونهم في معظم الأحيان على أنفسهم، في النفقة وجيد الطعام ليقووا على مواصلة العمل. وكانوا يختارونهم من الرجال الأشداء الأقوياء المعروفين بالصبر والجلد والأمانة والخبرة، لأن أدنى خلل في الأعمال الموكلة إليهم، يصيب الفلاح وسانيته ومحصوله بضرر كبير. وقد ترتفع أهمية العامل في الحقل إلى أن يصل إلى مرتبة المالك في الأهمية والتقدير؛ على حد قول عبدالله بن فهد الذي تقدم الاستشهاد بشيء من شعره:

يجي الحنيني فيه زين التواصيف
وانا المعزب والمعازيب كلاف

فما دام العامل في عمل الزرع كالفاً، فإنه بمنزلة المعزب صاحب الزرع، من

حيث إيثاره بأفضل الطعام وأجوده، غير أنه لا يهتم ولا تثقله الديون التي يتحملها المعزِّب الحقيقي، الذي يتعب في توفير علف السواني وقوت العمال والعيال.

ومن معايير الاهتمام بالعامل الزراعي وتفرده بنظرة اجتماعية كلها حب واحترام، تقديمه على التاجر وغيره في استيفاء حقه، فإذا ودع الزرع وصفيت ثمرته، سواء كانت صيفية أو شتوية، يبدأ المزارع أولاً بإعطاء الكالف أجره أو مقامه كما يطلق عليه قديماً؛ يقول فهيد المجماج:

لو طعت شوري كان خاويت مطرود
واخذت في كفك مقام تعده

ويختلف مقام الكالف، باختلاف المعزِّب أو الفلاح. فإذا كان غنياً وتتيسر في بلده النقود، فإن العامل يأخذ أجره مبلغاً معروفاً من المال، بعد تصفية الزرع، وهي تمثل نهاية العقد أو الضمامه عادة. أما إذا لم تتوافر النقود، فإن مقامه، عادة، يقدر بعدد من أصواع الغلَّة من الشعير أو البر أو الذرة أو الدخن حسب الموسم. وقد يكون مقامه بالجازه أو بطنه بظهره، وهذا يعني أن العامل يكون أجره ملء بطنه بالوجبات الثلاث يومياً مقابل ما يقوم به من عمل؛ وقد قال أحدهم في الجازة كأجرة للعامل:

شغلي جازه لا تنسان
والا ارخص لي وش هالحاله

وأجور العمال ليست ثابتة كما يشير إلى ذلك عبدالله بن دويرج:

نصيت البرود وجيت عجل منه باقبال
ووطيت الصوينع مرخص عمري الغالي
أنا من اول ما اشتغل الا بعين ريال
وانا اليوم ابشغل خمسة ايام بريالي
ادور عشايه والغدا والهجور محال
ومن حصل الثنتين ياحي من فالي

وفي بعض الأحوال يأخذ العامل، خاصة الساني، سهماً من الزرع كأجر له، ويكون معه سانٍ آخر ويشتركان بعشر المحصول، الذي يُدفع لصاحب الأرض إذا كان المزارع مستأجراً. فجميعهم يشتركون بربع الزرع، فإذا كان ربع الزرع ١٠٠٠ صاع فإن ٤٠٠ صاع (عشر المحصول)، عادة، تذهب إلى صاحب الأرض و ٦٠٠ صاع، تكون لهذين العاملين ويبقى للمزارع ثلاثة أرباع المحصول، وهو ما يعادل ٣٠٠٠ صاع. أما إذا كان المزارع مالكاً وليس مستأجراً، فإن هذا العشر يرجع له مرة أخرى، وبعبارة أخرى فإن العاملين يحصلان تقريباً على ١٥٪ من المحصول، عشر ونصف العشر.

وينبع الاحترام والتقدير المتبادل بين المعزِّب والعامل، من طيب المعزِّب،

والتزام صاحب الحلال والعامل، كل منهما تجاه الآخر. ولعل في الروايتين اللتين أوردهما سعد الجنيدل في كتابه السانى والسانية ما يوضح هذه الحقيقة؛ الرواية الأولى أنه اشترك فلاحان في زراعة، وكل منهما يؤمِّن غرباً بكل احتياجاته -السانية والساني، والأدوات- ويشتركان في دفع أجر العاملين (الكالفين)، وكل يوم يكون طعام العاملين عند أحدهما. وعندما جدّ السّقي، أصبحت سانية أحدهما تسمن ويرتفع سنامها. وسانية الثاني قد ظهر عليها الضّعف والإعياء رغم توفير العلف الجيّد الكافي لها، فسأل شريكه عن علف سانيته فأخبره بما كان يعلّفها به، فلم ير فيه زيادة عن علف سانيته، وكان الكالف عادة يغنّي في المسنى، وإذا أراد أن يصرف السانية في المعدّل قال وهو يشير بعصاه حِيّ، ويمدّ الياء. وكانت نساء الفلاحين يأتين في منتصف النهار إلى جوانب المسنى (المنحاة) بعلف، يناولنه السّانية كلما وقفت في المعدل. فأوصَى زوجته بالاستماع لما يقوله الكلّاف في المنحاة، وأن تلاحظ معاملتهم لسانيته، التي ظهر عليها الضعف. فبينما هي كذلك، رأت أن الكالف يضع رأس عصاه في زور سانيتهم كلما أراد أن يعدّلها في المعدّل، وفي المصبّ، ويدفعها بعنف، وهو يقول حَنْحِني، ويدغم بعض الكلمة ببعض، فأمرها أن تسأل زوجة شريكهم ماذا يطعمون الكلاّف؟، فأخبرتها أنهم يجعلون غداءهم حنينيّاً، فأمرها أن تعمل لهم مثل ذلك.

وإلى مثل قسوة هذا الكالف على السانية يشير قول مشعان الرشيدي:

سواقهن عبد مع الليل يجهم
وانجح مصاخفهن بروس المساويق

وقول عبدالله بن حمود بن سبّيل:

سواقهن عبد إلى رز محداه
اما أمرست برشاه والا وطت به

وقال آخر:

إلى اومى عليهن بالعصا جنه اجواز
وعند المعدّل جا لهن اختلاج

وعلى كل، فمثل هذه الحالات تعتبر نادرة، يميل إليها الكالف حينما يرى شيئاً من الإهانة أو زيادة مشقة في الكلفة من جانب معزبه الفلاّح، أو جفوة ونقصاً في طعامه.

أما الرواية الثانية فهي أن أحدهم كان كالفاً عند فلاح، وكانت له عباءة يلبسها في المنحاة، فأتى إليه مُعَزّبه في يوم شديد البرد فلم ير عباءته عليه، فسأله عنها، فقال إن قتب السانية فلانة يكرع في غاربها، وخفت إنه يلحق فيه،

وحطيت العباءة وقاة له، ترفعه عن غاربها، فنظر معزّبه إلى العباءة وهي تحت القتب، وقال الله يخلف علينا. فقال الكالف مالك؟، فقال فقدناك، ما أنت بكالف بعد هذه السّنة، سيغنيك الله عنّا وعن غيرنا.

ومثل هذه الأمانة والصبر والنصح من قبل الكالف لمعزبه وحلاله، الذي ائتمنه عليه لا بد أن يوضع في الاعتبار عند البحث عن الكالف على حد قول عبدالله بن سبيل:

لابد ما ترقد اصطاحي إلى اضحيت
وهم بمشاك القديمي يهرجون
أما إلى جت حرفة الزرع خليت
والا خذوك وفي مقامك يزيدون

فهو يشير إلى ناحية مهمة وهي أن أمانة الكالف لا بد أن تؤخذ في الاعتبار عند عودة الزرع، وهي بداية الإعداد للزرع؛ فيكون اختباره بناء على ممشاه القديم، ويقصد أفعاله الماضية في مجال الحرث، وما عرف عنه من إخلاص وأمانة. وكما يطلب الاخلاص من الكالف، يُطلب من المعزب إكرام العمال وخصّهم بأجود الطعام نظير جهدهم الكبير في الأعمال الزراعية. كما أن موافقة الكلاليف للعمل عند المعزب ربما تكون أيضاً مربوطة بإكرامه لهم، ولهذا فهم لا يغفلون عن تذكير المعزب بتوفير الغذاء الطيب حتى أثناء العمليات الزراعية على حد قولهم عند القيام بحرث الأرض وأثناء البذر كما مر معنا:

يامعازيبنا لا تحطوا قرع
فان حطيتوا قرع
فابشروا بالبقع

(ابن جنيدل ١٩٨٨: ٢٧-٣٠).

العادات والتقاليد. لم يكن مجتمع الفلاحين معزولاً عن بقية مجتمعات الجزيرة العربية، التي تؤلف في مجموعها سكان شبه الجزيرة العربية في ذلك العصر، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن الزراعة، كانت تمثل واحدة من المهن الرئيسية التي يقوم عليها اقتصاد أهل البلاد في تلك الفترة، كما أن لها وللعاملين فيها ارتباطاً وثيقاً بالمهن الأساسية، والمساندة على حد سواء. ولهذا سوف نقصر حديثنا على العادات والتقاليد المرتبطة بشؤون الزراعة والمزارعين.

فرضت الظروف البيئية والاقتصادية على مجتمع الفلاحين، بعضاً من العادات والتقاليد التي تعارفوا عليها كصور للتعاون بين المزارعين، مثل العونة والفزعة والمناقلة والمجابرة والمداوسة ونحوها. وتختلف صورة العونة والفزعة عن بقية صور التعاون، إذ إنها غير ملزمة، أما الصور

الأخرى ففيها إلزام. ولهذا جاءت التسميات الثلاث الأخيرة على مصدر مفاعلة؛ على حد قولهم «اشتغل عندي واشتغل عندك». وهي وإن كانت في الغالب أعمالاً زراعية متشابهة، مثل عملية الحصاد والحرث التي لها فترة قصيرة في زمن الغلة المزروعة، إلا أن ذلك لا يمنع المناقلة أو المجابرة في أعمال مختلفة، ولكن تكون مدة المناقلة أو المجابرة متساوية. وإذا حصل للمجابر أو المناقل ظرف يمنعه من الوفاء بالتزامه تجاه من جابره أو ناقله، فإنه يستأجر له عاملاً يحل محله. وعادة تكون المناقلة والمجابرة بين المزارعين المتجاورين. ومن الاختلافات الأخرى بين الفزعة وأختها والمناقلة وأخواتها، أن الأولى ربما تكون من الفلاح وغيره، أما المناقلة وأخواتها فلا تكون إلا من فلاح لآخر. وإذا كان الفازع غير فلاح، فعادة يخصه المزارع بشيء من إنتاجه وقت الحصاد أو مطيح المقيظ.

وقد أشار أصحاب الخبرة من شعراء الحرث إلى هذه الصور في قصائدهم، التي تمثل في نظرنا أقوى سجل لحفظ صور التعاون والعادات بين الفلاحين؛ يقول حميدان الشويعر:

واحب صياح القيظ ورد وصادر
وصياح غارات الربيع تروع

إذ المقصود بصياح القيظ هو التعاون في الأعمال الزراعية، من جمع ثمار النخل إذ هو وقت نضجها. ويلحق في ذلك أيضاً دعوة الفقراء والجياع للأكل من ثمر النخيل، ولهذا فالشاعر يحبه. أما صياح الربيع فهو لا يحبه لأنه يرتبط بغارات البادية على مراعي القرى الزراعية وحماها، التي تدعو، عادة، إلى قتال ومنازلة. ولارتباط القيظ بالفرح نجد من أمثالهم ما يصور حبهم للقيظ وكرههم للشتاء؛ قالوا «جا الشتاء وقمله، وراح القيظ وتمره» يقول المثل لقد ذهب موسم الرطب والتمر وجاء الشتاء، وليس به إلا البرد والجوع والقمل تلك الحشرة التي تؤذي الناس؛ ويضرب المثل على ذهاب الأمر الحسن وقدوم الأمر السيء.

وصور التعاون ومجالاته عديدة، ويكون في مختلف العمليات الزراعية المرتبطة بزمن أو فترة قصيرة، كالحصاد والدياسة والتلقيح والصرام. ولكنّ التعاون لا يكون في السقي إلا أن يعطي الفلاح بعض حيواناته لظروف طارئة، بشرط أن تكون زائدة ولفترة قصيرة. كما يكون التعاون، وبشكل جماعي، في الظروف الطارئة كالكوارث المفاجئة أو غزو الدبا، حيث يخرج الجميع لعمل الزبى؛ والزبيه هي الحفرة التي تعد في

مقدمة زحف الدبا لدفنه فيها قبل الوصول إلى المزرعة. أما إذا وصل إلى المزارع فإنهم يتعاونون في الكمام وضرب التنك أو الطبول وتذييره أو إشعال الحرائق لانبعاث الدخان المذيِّر للجراد.

ومن العادات الحميدة لدى مجتمع الفلاحين تقييظ جيرانهم الفقراء، الذين يجاورونهم في القرية سواء من له مهنة أو من ليس له مهنة. ويعتمد الفلاح على هؤلاء الجيران في الأوقات الحرجة وتراكم الأعمال. وقد يَعْرِضون أنفسهم على الفلاح، طلباً ورجاء بأن يخصهم ببعض إنتاجه، وهو ما يفعله في معظم الأحيان، إذا لم يقدم لهم شيئاً من نفسه بعد الانتهاء من مساعدته. ولذلك فهم يشبعون في ذلك الوقت وإن مؤقتاً؛ قالوا في المثل «شبعة المساكين بأيام الصرام» ويعني المثل أن الفقراء يصيبون من خير الفلاح أيام الجداد ما يشبعهم؛ ويضرب المثل للأمر المؤقت الذي لا يدوم.

ومن العادات إعطاء الفلاح زوجته في بعض المناطق (مثل حائل) السقاط، مكافأة على مساعدتها له في موسم زرع الشتاء. والسقاط هي السنابل التي تسقط في الحصيدة أثناء عملية الحصاد اليدوي. وتلتقطها الزوجة وتصفيها حبّاً تتصرف به كيف تشاء، كما يعطيها أيضاً حب كدس كامل. وللزوجة في موسم الصيف كذلك سقاط التمر، الذي يسقط من النخل أثناء عملية الصرام، بالإضافة إلى نخلة كاملة تتصرف بثمرها، وتسمى العارية أو الحفال. وقد يترك أمر السقاط أو الحتات لمن يريد لقطه وهو قليل؛ صور قلته المثل «تَلْقِيط مَا هنَـا حشِي» تلقيط أي لقط، وحشي أي أخذ بكثرة؛ ويضرب للقليل يلقط شيئاً فشيئاً. والظاهر أن أصله في سنابل القمح ونحوه. وقد يطلب الملتقط وبخاصة الصغار منهم أن يرمي من على النخلة لهم شيئاً من بلحها أو ثمرها، ومن أمثالهم ما يصور شيئاً من ذلك؛ قالوا «جاك عمك والبلح»؛ لهذا المثل قصة ملخصها، أن رجلاً كان يلتقط البلح من نخلة وتحته أطفال صغار يطلبون منه أن يرمي لهم بالبلح. فجاءه خبر وفاة محبوبته وهو على تلك الحال فاختل توازنه وسقط من النخلة وهو يقول المثل.

وفي منطقة الأحساء هناك عادة زراعية قديمة، تسمى ليلة الحبوب وهي ليلة ٢١ محرم من كل عام، وهي حفلة خاصة بالعائلة داخل منزلها. فيحضر الفلاح أنواعاً متعددة من اللحوم وكروش البقر والأغنام ويطبخها مع الأرز الحساوي، وأنواع الخضراوات، خاصة

اللوبيا والباذنجان وغيرها. وتعد تلك الليلة من أجمل المناسبات وأكثرها ابتهاجاً لخروجها عن روتين الطعام، والعادات الاجتماعية الرتيبة السائدة.

وفي نجد هناك وليمة ختامة الزرع، وفيها يقدم المزارع ذبيحة لعائلته وشركائه وجيرانه، كاحتفال عائلي صغير. وهي من المناسبات التي يترقبها بعض الأفراد، فيأتون للمشاركة فيها لأنها أصبحت عادة لهم.

ومن العادات الاجتماعية لمجتمع الفلاحين، الاستحمام خارج المنزل، خاصة في المناطق التي تتدفق فيها العيون كالأحساء والقطيف. ويخصص للنساء غرف مقفلة تمر المياه عبرها. ويعد يوم الجمعة اليوم المفضل لممارسة هذه العادة الاجتماعية.

صورة قديمة لعين في الهفوف

وهناك في مجتمع الأحساء -وهو مجتمع زراعي من الدرجة الأولى- بعض العادات والتقاليد التي تشبه ما نجده في المنطقة الوسطى، كخروج سكان القرية لاستقبال الحجاج العائدين من مكة بعد أداء فريضة الحج، ابتهاجاً بقضائهم شعيرة الحج وعودتهم سالمين.

ومنها أن يتناول الذكور والنساء طعامهم، كل على حدة. فلا تأكل المرأة مع زوجها أو أولادها الكبار. أما الأطفال فيأكلون مع أمهاتهم، لكن البنات إذا كبرن فلا يأكلن إلا مع الأم.

ومن العادات بين الجيران أنهم يترافدون عندما تعد الأسرة طبخة جديدة فترسل طبقاً منها وتبادلها الأسرة الأخرى نفس الهدية وتسمى الرِّسَيْم، وبخاصة يوم الجمعة.

ومنها أيضاً جلوس كبار السن في العاير، وهو ركن المسكن المواجه للشمس في فصل الشتاء، ويسمى المشراق. وفيه تحلو السوالف ورواية القصص وتبادل الذكريات ومعرفة أخبار الحي؛ يقول الشاعر:

من قابل المشراق والكن والذرا
يموت ما حاشت يديه الفواید

ومن العادات الشائعة في مجتمع الفلاحين رعاية المقيم لأسرة جاره أو

صديقه المسافر لفترة طويلة، إذ يشعر المقيم بأنه مسؤول أدبياً عن هذه الأسرة.

ومنها أيضاً منع السكان أطفالهم الصغار من الخروج أو اللعب بعد غروب الشمس، إذ إن نمط تخطيط المنازل وتلاصقها، وضيق طرقاتها وتعرجها وانعدام الإضاءة فيها، قد فرض هذا الأمر. وإذا لم يمتثل الأولاد، فإن الأمهات يعمدن إلى تخويفهم بالجن والعفاريت. وقد تعمد الأم إلى سرد قصص وأسماء وهمية، للعفاريت مثل عبد السله، والمقرصه الحاميه، وأم المحامل (الناقة)، وأم السعف والليف وحمار القايله. وتعمد بعض الأمهات إلى ذكر وإطلاق بعض الأسماء تفاؤلاً مثل: تجيك العافيه -وهي محمودة- لأنها لا تريد أن تتفاءل على طفلها بشر. وقد تدعو المرأة على ابنها من باب التخويف فتقول «ياستر الله تعال على فلان» وأيضاً يُخوف الأطفال بالسّعْلِيّه أو السعلوّه وحمال استه وعينيه وسرّاي الليل، غير أنه في بعض المناطق ساحات مغلقة داخل المنازل، أو ساحات مفتوحة، خارج المنازل، يمارس فيها الأطفال من الصبيان والصبايا ألعابهم، كل على حدة، من بعد غروب الشمس إلى وقت الانتهاء من صلاة العشاء.

ومن العادات الشائعة أيضاً المحافظة على وحدة العائلة وسكنها، وعدم تفرق أفرادها حتى بعد الزواج، ما دام لهم هناك مكان، وهو أمر قائم في جميع الأوقات. فبساطة تخطيط المنزل ساعدت دائماً على إضافة مساكن للمتزوج أو القادم، خاصة إذا كان الأب وأم الأولاد لم يتفرقا بطلاق أو موت. وكثيراً ما يترك الأبناء الذين يرحلون إلى العمل أو الضمامه لدى مزارع آخر، وفي مجتمع قروي آخر، زوجاتهم وأولادهم عند والديهم. وتكون عودتهم إليهم في أيام الجمع أو الأعياد، أو حسب ظروف العمل الذي رحلوا من أجله. ويكتسب الأبناء عاداتهم من والديهم؛ ولذلك يقال في الأمثال «اللي يبذر سارط يحصد خنيز»، السارط من البذور الطفيلية التي لا يستفاد منها وكذلك الخنيز؛ ويضرب هذا المثل للنتائج التي تأتي مشابهة للمقدمات، فالإنسان يحصد من نوع ما يبذر؛ وقريب من هذا المثل قولهم «مثل السارط» أي لا فائدة ترجى منه. وقولهم «الحب من بذره» و«هالعود من هالشجره»؛ هذان مثلان يعدل بهما إلى الحكمة؛ يضرب المثلان على الشيء الطيب يخرج منه شيء خبيث خلافاً لما هو متوقع، والعكس صحيح.

توارث مهنة الزراعة. شكلت الزراعة مع الرعي والتجارة والصيد البحري والجمالة، موارد اقتصادية قليلة. وتوارثت الأجيال هذه المهن وغيرها أباً عن جد، ولم يحفظ لنا الشعر -الذي يعدّ أهم المراجع إن لم يكن المرجع الوحيد، الذي احتفظ برواية بعض الحوادث والقصص عن شعراء الحرث وأبقى عليها، خاصة في الفترة الزمنية التي نحن بصدد الحديث عنها- عن تحول أصحاب مهنة إلى مهنة أخرى إلا في النزر اليسير. وإذا أضفنا إلى صعوبة التحول من مهنة إلى أخرى، بسبب استلزام كل مهنة باحتياجاتها الخاصة، حقيقة مهمة وهي أن الزراعة قوام التحضر، وأن الرعي قوام البادية؛ أدركنا أن التنشئة على المهنة والتدريب والتعليم لسر المهنة وإتقانها، قد حفظت لها التوارث عبر الأجيال على حد قول الشاعر:

وينشأ ناشىء الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

شكا أحد المزارعين من زهران حالته لأخيه الذي يعمل في أرامكو بالظهران ويفيد أنه تخاصم مع المزارع فلان -من نفس قريتهم- على وقت السَّوْق وقد أدى هذا الخصام إلى التشابك بالأيدي والانتهاء إلى السجن وكانت الشكوى في قصيدة البدع:

علي عن ذا سجن ما تحت جنبه خصف
مسكين مسكين ما يقدر يقاوى العناد
فيه الكلبشه وذرعانه سواك لها
وقد رد عليه أخوه قائلاً:
كم قلت لك عن نقاع ابني حسن ياخ صف
ما هي كما مصر ولا رام ذات العماد
والرزق مكتوب وارض الله سوا كلها

يقول فهيد المجماج -وهو شاعر ومن أسرة زراعية- مخاطباً أخاه ناصر الذي عزم على الاشتغال بالزرع، موضحاً احتياجات المهنة؛ وفي البيت الأول إشارة واضحة على أن توارث المهن من العادات الاجتماعية السائدة في تلك الفترة:

ناصر زرع له زرعةٍ ما بها فود
متصلصلٍ يبغي مواريث جده
الزرع ياناصر يبي قود وجلود
ومحال ياناصر وشده وعده

ولعل نهج ناصر وأمثاله في الاستمرار على مهنة الآباء والأجداد، بحيث تصبح المهنة أشبه بالميراث، هو الذي حفظ لنا الأساليب والأدوات الزراعية التقليدية بأسمائها فصيحة لم تتغير.

وها هو حميدان الشويعر يوصي ولده بالزراعة، خاصة النخلة إذ هي الشجرة الرئيسية، إن لم تكن الوحيدة التي أثبتت

بإنتاجها الوفير، أنها تستطيع أن تقف في وجه عاصفة الجوع والفقر، الذي كان سائداً في نجد آنذاك.

ترى الخير في راسيات الجذوع
إلى دلبحن السنين الحطايم
غيد ظليله يطرب مقيله
وسمعك تمتع بصوت الحمايم
توفر حلالك وتفرح عيالك
ويكثر نوالك بيوم الصرايم

أما محمد بن راشد السويداء، فقد اشتكى من بئره التي نغصت عليه حياته، وأسقته النكد ولكنه كافح وكد من أجله لأنه «نخل العود» أي والده، وقد عودهن على التدليل والعناية الفائقة، فلا يمكن تركهن بأي حال من الأحوال:

الله يابير سقانا الصديدي
والله من همٍ على القلب شال
يالله طلبتك يامعين الوحيدي
رب السماوات العلا والجبال
قربتني من عقب ماني بعيدي
وحطيت لي غرسٍ يمين وشمال
ومن بينهن خطيت بيرٍ جديدي
ولولاك ما غنّت عليه المحال
ولولاك لو كان الحصى لي مجيدي
عجز عنه عزمي وقصر حلالي
لعيون غيد نكّسن الجريدي
نحط لهن تحت المصبه دمال
نجيب لهن من عِقّر البدو بيدي
حيلٍ شتا بظهورهن الحيال
لاجل انهن غرسٍ لعود فريدي
وملهساتٍ للبها والدلالي
تدبير رب العرش ماهي بالايدي
يوم الولي يكتب عمار الرجال
يكتب شقي وذاك يكتب سعيدي
وهذا غني وذاك ما له حلال

وفي صورة أخرى يصور الشاعر فهيد المجماج، أن العمل في الفلاحة والسني، كان من أجل العود، إذ إن طاعة الوالد ومصالحه مقدمة في نظر أبناء ذلك الجيل، على مصالح الابن الخاصة مهما كانت الظروف؛ يقول فهيد:

ألا واهنيّك بس تتلي البقر ومريح
والا واهنيك كل رجمٍ تعدّي به
وانا أتلي معاويدٍ لمحّالهن ضبيح
حداني عليهن عودٍ أنا ويش اسوي به

الفلاحة كما تصورها الأمثال. الأمثال هي الحكم التي تروي خبرة الحياة اليومية، وتعبر عن النموذج الذي ينبغي اتباعه. ولهذا تأتي، عادة، في عبارات أدبية موجزة، تمثل مواقف معينة من الحياة، ووسيلة من وسائل التعبير عن واقع خبرة المبتدع وظروفه البيئية والاجتماعية. ونظراً لذيوع مادتها، وانتشارها بين الناس، وامتزاجها الشديد بلغتهم، وارتباطها

بمختلف جوانب حياتهم، كانت الأمثال مصدراً مهماً تضافر مع الشعر النبطي، في كشف العديد من الأمور المهمة في عقلية الفلاح التقليدي، وإدراكه لمقومات مهنته. فقد أمكن من خلال تحليلها التعرف على العادات عند أهل الحرث، ونظرتهم للحياة ومقومات مهنتهم، إذ الأمثال وليدة البيئة التي نشأت عنها وفيها قيلت. كما كانت بالنسبة للباحثين أقصر الطرق، للاطلاع على تجارب الفلاح، وبمثابة المفاتيح لكثير من جوانب الحياة الغامضة لتلك الفئة الاجتماعية.

إن المتتبع لما جمع من أمثال أهل الحرث سواء من مقابلات الرواة والمزارعين وكبار السن، أو من كتب الأمثال المشهورة في شبه الجزيرة العربية، يدرك تماماً أن ما صُنِّف تحت اسم (أمثال أهل الحرث) هو جزء من الأمثال الشعبية العامة في شبه الجزيرة العربية. واهتمامنا منصب على الزراعة التقليدية في شبه الجزيرة العربية فاقتصر اختيارنا على أسماء الأشياء، التي تحيط ببيئة المزارع وتعد خاصة به كفئة معينة من المجتمع، سواء أكانت خاصة بأنواع الإنتاج الزراعي، أم بالأدوات التي يستخدمها في حياته اليومية أو مصطلحات العمل التقليدي له. والأمثال تكشف عن إدراك الفلاح التقليدي، لجوانب مهنته المتعددة التي اعتاد على ممارستها، ولم يدونها للأجيال بعده، فنكشف عن رؤية الفلاح كمبدع للمثل، وعن رؤيته لحرفة الزراعة كمضرب للمثل. كما نكشف عن الوجوه المتعددة التي جاءت عليها هذه الأمثال، سواء أكانت أقوالاً موجزة متصلة بمناسبة من المناسبات، أم حكمة سائرة، أم تشبيهات تمثيلية أفادت التصوير، أم تشبيهات بسيطة أفادت الموازنة، أو المفاضلة، أو عبارات كثرت مناسباتها، فكثر ترددها حتى صارت أمثالاً تتردد على ألسنة الخاصة والعامة. بل إن المأثور الثقافي للفلاح التقليدي من ألفاظ حديثة أو قديمة شاعت في لهجته العامية، أو ارتبطت بأسماء وأوصاف الظواهر الطبيعية، أو أشكال العمل التقليدي قد حدَّدَ، في كثير من الأحيان، شكل التعبير ولغته، في أمثال أهل الحرث في شبه الجزيرة العربية، كاستخدام أنواع عديدة من فنون البلاغة والبيان والمحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق.

الأمثال يمكن أن تحمل أكثر من دلالة، وتهدف إلى أكثر من معنى، وتضرب لأكثر من مناسبة. وهي في مجملها تتضمن نماذج لأساليب العمل وحياة الفلاح التقليدي في شبه الجزيرة

العربية؛ فمثلاً المثل الذي يضرب للأشياء رخيصة الثمن فيقول «أرخص من تبن المذنب» يوضح أن القمح محصول رئيسي لدى الفلاح، بل إن منطقة القصيم قلب شبه الجزيرة العربية، ومدينة المذنب إحدى مدن القصيم، قد اشتهرت به ولقد بلغ من شهرتها بهذا المحصول أن التبن لا يباع على الرغم من أنه يحفظ في مناطق أخرى في مخازن البيوت، للاستفادة منه، كما يشير إلى ذلك المثل «إلى صاح الصياح توزى في صفة التبن». ويكشف المثل في جوانبه الأخرى عن حقيقة مهمة؛ فهو إن كان يضرب لمن يجبن في وقت الخطر أو عند الشدة، إلا أنه يظهر أن حياة الفلاح القديم لم تكن آمنة، فالظروف البيئية الصحراوية أوجدت نوعاً من الصراع، جعل المراكز الحضرية على ضآلة حجمها في مجتمع الجزيرة القديم، هدفاً لاعتداء قُطَّاع الطرق (الحنشل) أو بعض البادية، الذين يجاورون تلك المراكز خاصة في وقت القحط والجفاف، الذي يجتاح شبه الجزيرة العربية بين فترة وأخرى.

ومن الأمثال التي تضرب للتجربة بصفة عامة، خلال الممارسة العملية لحياة الفلاح القديم، وتضمنت بعض المنتجات الزراعية المثل «إلى أكلت بصيل فكل بصل»؛ ويضرب مثلاً لمن يعمل عملاً يتساوى فيه القليل والكثير من حيث النتيجة. و«احصد هوا، وغَمِّرْ ماش» و«إلى طلع الزرع تبينت الحنطه من الشعير» و«اللي يبذر سارط يحصد خنيز» و«البذر محفوظ» و«الليف من الكرانيف» و«الزرع من بذره» و«زَرَعنا لو، في ديرة عسى، وطلعت الثمره ياليت» و«حصدنا ما زرعنا» فهي في مجملها توضح أن الجزاء من جنس العمل، وأن النتائج تأتي مطابقة للمقدمات، فالإنسان يحصد من نوع ما يبذر.

ومن أمثال التجارب المثل الذي يقول «إن كانك تاكل التمر، غيرك يعد الطعام»، إشارة إلى أن هناك من يرصد تحركات الإنسان، إذ المقصود بالطعام هنا نوى التمر التي هي أثر طبيعي لأكل التمر وهو العبس والمفرد عبسه التي ترد في مثل آخر، قالوا «قعيس شايلن عبسه» القعيس هو العوف حشرة من فصيلة النمل والعبسة النواة؛ ويضرب المثل لمن يحاول أمراً فوق طاقته. ولا يفلح الكذب وإخفاء الحقائق إذ قد يدل عليها دليل؛ «يقوله عمِّي قمعان» لهذا المثل قصة موجزها أن فلاحاً كان يأكل التمر دون أبناء أخيه، ويدعي أنه لا يجد تمراً وقد نشب بلحيته قمع تمرة فقال أحد أبناء

أخيه المثل. ويضرب المثل لمن يكذّب فعلهُ قولَه أو ادعاءَه. والمثل «تراب العيش عيش»، فالأشياء ذات الأصل الطيب قد يلحقها أشياء غير مرغوب فيها، أو من غير جنسها ولكنها حينئذٍ تصبح ذات قيمة طيبة كالأصل. ويرد التراب في مثل عكس ذلك قالوا «قْلِعُه بترابه»؛ يضرب المثل لما اجتث من أساسه. وأصله في النبتة ونحوها تقلع مع ترابها الذي فيه جذورها. وعكس ذلك أيضاً الأمثال «التمر ما يخلى من الحشف» و«كل تمر فيه حجف» و«التمرة ما يخربها إلا سروها» و«بلا التمرة من سروها» و«التمر به خنانه»؛ إذ تضرب للقوم الذين يدب فيهم الفساد، بسبب وجود شخص فاسد فيهم؛ ويضرب للشخص الرديء في الأسرة الطيبة، والمعنيان متقاربان. ويكنّون عن الأمر الهيّن بقولهم «سلْب عِبْسِه» «سلب العبسه»، أي القطمير، وهو القشر الخفيف الذي على نواة التمرة، ويعني المثل أن الأمر هين شأنه ولا قيمة له.

أما المثلان «الحشف أو الحجف ما يتلازقن»، أو «الحجف ما يلزق بالحجف والحشف ما تلزق بالحشف» و«لى صار صاحبك حشفة صير له تمره» فقد استخدم لفظ حشف، وهو التمر اليابس غير الناضج، ويفيدان أن تجنب العداوة والتفرق في الأسرة والجماعة، توجب ألا يكون الناس كلهم حشفاً، إذ لو أصبحوا كذلك لم يأتلفوا، ولكن الواجب أن يكون بعضهم بمثابة التمر، ليسمحوا بالتلاحم في حالة وجود أُناسٍ كالحشف. ويشبه المثلين السابقين في مدلولهما المثل الذي يقول «بسرة خضري تنشب في الحلق». فبعض الناس لا يمكن أن تأمنه إلا إذا بلغت غاية الحرص في ضبط أمورك معه، خاصة عند التعامل معه إذ هو يشبه ذلك النوع من البلح، الذي لا يحلو إلا إذا نضج تماماً وأصبح رطباً، فالمظاهر الجميلة يكون تحتها أحياناً مساوىء كثيرة كما يدل على ذلك قولهم «الزرع أخضر والناس أخبر». وإذا أنت عرفت ذلك فعليك عدم إدخال الأمور المعنوية بالأمور المادية، فكل شيء له ثمنه الخاص كما في المثل «الصداقة بالصداقة والجراوة بالتمر».

بلغت الأمثال التي جعلت التمرة مادة أصيلة في صياغتها، أكثر من ٤٠ مثلاً. ودلت في مجملها على أن النخلة كانت تمثل إحدى الركائز الأساسية في الاقتصاد الزراعي التقليدي في شبه الجزيرة العربية، نظراً لخصائصها التي تتلاءم والبيئة الصحراوية. وقد بلغ من شدة معزتهم

لتلك التمرة أن قالوا في بعض أمثالهم بأن الميت بسبب إفراطه في أكل تلك الفاكهة يعد شهيداً، كما ورد في المثل «ميت الخضري شهيد»، بل يجب على من شارك القوم في أكل تمرهم، القيام بأمرهم كجزء من رد الجميل، إذ منحوه أثمن ما يملكون، كما في المثل «من أكل تمرهم يقوم بامرهم».

وقد بلغ الاهتمام بالتمرة لديهم، كمادة غذائية، أن صبروا على المكاره من أجلها؛ قالوا «كد تمر وحر جمر». ومن الاهتمام بها أيضاً شدة المحافظة عليها حتى تمام نضجها، وعدم السماح لأطفالهم بالعبث بها كما في مدلول المثل «العب بها وهي بالقنا». وأصل المثل أن طفلاً طلب من والده أن يطعمه تمراً من نخلة له، فرفض الأب فقال الابن إنني أريد أن العب بها لا آكلها فقال والده هذا المثل. وهذا يشبه المثل «الويل الويل لأكّال التمر بالليل» إذ هو ردع عن طلب التمر للأكل ليلاً، حفاظاً عليه، ومثله قولهم «التمر في الليل جَلَّه» ومثله «صار الما سراب والتمر جله». وقد بلغ بهم حب التمر وإدراكهم لأهميته كمادة غذائية قولهم «التمر ما يودع عند البدو»، وقولهم «تمره وعند بدوي» أو «سحه وعند بدوي» و«التمر في سفوان حلاوه» و«الجوعان يحرث بالفصم» و«فصمة بدوي» و«تمره مع تمره يصيرون تمر» و«التمر مسامير الركب» و«تمره وفي يد بزر» و«الحضر لو يبون حطوا عيدهم تمر» و«الشيص بالغبَّه حلو» و«لو التمر عند البدو ما باعوه» و«لى صار عشاك تمره لا تنظر القمره» و«تمر وانسماح أمر» و«أحلى من اللي ينقد الطير راسها» و«راعي الضويه حيا، وراعي التميره مات» و«تمره، ما تجوز عليها اللواحيس» أو «تمره، ما عليها لاحوس» أو «تمره، ما يضرها اللاحوس» و«سحه، ما عليه لاحوس» و«تمرة خِرْج» إذ إن التمر هو غذاء المسافر والمقيم؛ ويضرب للشيء يكون جاهزاً في أي وقت. ويشبّه الإنسان بالتمرة في مثلهم «سحة دجاج» فالدجاج ينقر التمرة من كل جوانبها؛ ويضرب المثل إذا اكتنفت المصائب الإنسان من كل مكان. ويشبه بمريس الرطب قالوا «مريسة رطب»، والمريسة التمر الممروس بالماء، ومريسة الرطب لا يظهر فيها اللون ولا الطعم لعدم نضجها وتركز حلاوتها، مثلما يكون في مريسة التمر العادي، ويضرب المثل للإنسان أو الشيء يكون على غير مظهره.

وإذا كان العيش، وهو الحبوب بأنواعها، والتمر، يمثلان العنصرين الأساسيين لطعام أهل الحضر والبادية في

قلب الجزيرة العربية، فقد استخدما في أمثالهم للتعبير عن المستوى المعيشي في تلك البقاع، كقولهم «الخير واجد، عند أبو ماجد، إلا التمر والعيش ما ياجد» ولكن القناعة مطلوبة والتواضع مطلوب إذ الغني والفقير سيعيشان، قالوا في المثل «يعيش أبو مد مع أبو رميله»، والمد: المكيال المعروف، والرميلة: بناء جصي يستعمل لخزن التمر يكون غالباً قدر قامة الرجل ارتفاعاً. وتختلف سعته لأن أسفله يرمل بعذوق النخل، أي يشبك بعضه ببعض حتى يصبح كالحصير، ليسمح بمرور الدِّبس الذي يخرج عند ضغط التمر بعضه ببعض؛ ويضرب المثل في إمكانية سير الأمور وإن اختلفت الأحوال. وقد دخل التمر والعيش، كعنصرين غذائيين، في رسم بعض القواعد والعادات الاجتماعية؛ كقولهم «التمر خص والعيش قص». ويمرس التمر في الماء فيكون شراباً حلواً سائغاً؛ قالوا في المثل «عنز طاحت بمريس» أو «عنز بدو وطاحت بمريس» طاحت: كرعت، والمريس التمر الممروس في الماء؛ ويضرب المثل لمن ظفر صدفة بشيء يتوق إليه فأكثر منه، وهو شبيه بالمثل المتقدم «طاح في حفرة الدبس».

وبلغ من حبهم للنخلة كشجرة مباركة، أن احتوت مفهوم النشاط الزراعي بأكمله؛ فقيل «ماله صخله ولا نخله» أي لا شيء لديه والصخلة هي السخلة أي الصغيرة من الماعز. وبطول النخلة ضرب المثل، فالطول لا خير فيه ما لم يقارنه العقل؛ قالوا «الطول طول نخله والعقل عقل صخله»؛ ويضرب المثل لمن سِمْتُه حسن وتام وفِعْلُه أحمق وضعيف. وعلى من يملك نخلاً أن يزيد في الإنفاق كيفما شاء؛ إذ إن «الشقا على أم عسيب». وإذا حالت نخلته فعليه التخلص منها «من حالت نخلته جدعها». واستخدمت أجزاء التمرة في أمثالهم من مثل قولهم «العوف اللي يزاوم الفصمه» العوف: هو القعس، والمزاومة محاولة الحمل أو الجر، والفصمه نواة التمر؛ ويضرب المثل للتهكم من الإنسان الذي يحاول أمراً فوق طاقته.

وإذا كانت التمور قد استخدمت في صياغة كثير من الأمثال، فإن النخلة ذاتها كمنتج لتلك الثمرة قد استخدمت بعض خصائصها، كالطول الفارغ أو الاعوجاج، في وصف ما يشابهها من تصرفات الناس؛ فضرب للكسول الذي يتعلل بأوهى الأسباب، لكي لا يعمل، قولهم «الطويله ما أقدر ارقاها والقصيره كلها شوك» وقولهم في من يتجاوز فضله أقاربه إلى غيرهم «النخله العوجا بطاطها بغير حوضها» أو «النخل الأعوج سقاطه

بغير جذعه». وضرب المثل بشموخ النخلة وقوتها، قالوا «ما حلم بك يا ذرَّه» لهذا المثل حكاية تقول إن الذرّة (واحدة الذَّر وهو النمل) قالت يوماً للنخلة استعدي أيتها النخلة واشتدي، فإنني سأصعدك، فقالت النخلة هذا المثل؛ ويضرب المثل للأمر السهل لدرجة التفاهة. وعبروا عن قرب أجل الأشخاص أو الأشياء بالكناية عن قرب غروب الشمس؛ قالوا في المثل «شمسه على روس (أو أطراف) العسبان» أي شمسه على رؤوس ذوائب النخل؛ أصل ذلك أن آخر ما تغرب عليه الشمس في بيئة الفلاح، هو رؤوس ذوائب النخل. ويضرب المثل للأشياء التي قرب أجلها.

ويرد ذكر العسيب في مثلين يعبر أحدهما عن القلق والآخر عن الاستقرار قالوا «طير على راس عسيب»؛ يضرب المثل للإنسان غير المستقر القلق، وكأنه الطائر على طرف العسيب مستعد للطيران في أي لحظة. و«طيرة قرقري من عسيب في عسيب»، قرقري نوع من الطيور الصغيرة؛ ويضرب المثل للإنسان الذي لا يبرح مكانه إلى مكان بعيد، فهو ينتقل من مكان إلى مكان قريب منه.

أما الزرع وهو العنصر الغذائي الآخر والمساند للتمر، فقد استخدمه الفلاح التقليدي للتعبير عن بعض تجاربه، كقولهم «زرع البقعاوي زين مير ما سنبل»؛ يضرب لمن يمدح شيئاً فقد كل عناصر كينونته، أو فقد العنصر الأساسي للاستفادة منه. وقولهم «زرع ابن مرزوق يحصدنه بناته»؛ يضرب للاكتفاء الذاتي وقولهم «زرع سبَّاق يبذر كيسين ويجيه كيس»؛ يضرب لمن تجيء نتائجه مغايرة لتطلعاته، وهو يشبه إلى حدٍّ ما مدلول المثل الذي يقول «ما يسوى حصاده رجاده».

وإذا كانت الأمثال السابقة تحكي النتائج، فهناك أمثال أخرى تنهى عن الإغراق في تدقيق نفقات المشروعات، لئلا يفضي ذلك إلى النكوص عن تنفيذها؛ كقولهم «لو حسب الزراع زرعه ما زرع» وقولهم «لو حسبنا للعصافير ما زرعنا الدِّخن» وقولهم «لو حسبنا للطير ما بذرنا الحب». والاعتماد على النفس أمر مهم في مهنة الزراعة الشاقة، وقد تناولته أمثال أهل الحرث في صور من القول الموجز، واختارت للمثل من المحسنات البديعية ما يزيده جمالاً؛ كقولهم «كل من ياكل عصيدته يقوم بمصيبته».

أما التعاون بين الناس فقد سعت أمثال كثيرة، من أمثال أهل الحرث،

إلى تأكيده كقيمة من القيم الاجتماعية، كقولهم «حزمة صنوخ». وصنوخ جمع صنخ وهو أصل عذق (عرجون) النخلة الذي تتفرع منه الشماريخ، وأصل الكلمة «سنخ»، وهي في الفصحى، الأصل في كل شيء، ومن ذلك سنخ النصل وهي الحديدة التي تدخل في رأس السهم. والصنوخ ملساء ويصعب ربطها كأعواد الشجر، ومهما يشدّ رباطها فإنها تنسل منه؛ ويضرب المثل في عدم الالتزام برأي الجماعة. كما يضرب للقوم الذين ينفلتون من الإجماع والاجتماع في مسائل تنفيذ الأمور النافعة، أو الدفاع عن الممتلكات والأعراض. و«حزمة كرب» وحزمة الكرب لا يمسكها الحبل، لأن الكرب كثير الانزلاق والانفلات من الرباط. ويضرب المثل في الأمر أو الجماعة لا يوحدهم رباط أو كلام أو رأي.

وقد يكون الإنسان كريماً ينفع من حوله، ولكنه لا يسلم من الذم؛ قالوا «مثل الشعير ماكول، مذموم» يعتبر الشعير في الدرجة الثالثة بعد القمح والذرة في أكل الناس؛ ويضرب المثل للأمر أو الإنسان يستفاد منه ولا يسلم من الملامة والذم.

على أن كل إنسان مسؤول عن عمله لذا قالوا «كل تمر فيه حجف» والحجف هو الحشف بقلب الشين إلى جيم؛ ويضرب المثل للشيء أو الأمر فيه الطيب وفيه الرديء.

والتسامح والصبر في المسائل الزراعية -خاصة بين الشركاء نظراً لضيق ذات اليد- أمر أخذ في الاعتبار، وصوّرته أمثال أهل الحرث في صور عديدة واستخدمت الإنتاج الزراعي في صياغاته، كقولهم «وش عمر السنبلة؟» ويضرب المثل للصبر على ما ينقضي سريعاً، فالمقصود أن عمر السنبلة قصير لا يجعل الصبر على تجاوزات الشريك أمراً صعب الاحتمال؛ لأنه بعد قليل سوف يحصد الزرع وتنتهي الشراكة وينتهي معها أذى الشريك. وقولهم «معلق عباته في الكربه» وقولهم «سنبلت على كعب» والكعب العقدة التي تكون في نبات القمح، وغالباً ما يكون في النبتة عدة عقد، إلا إذا كانت ضعيفة أو كان الماء شحيحاً فلا يكون فيها إلا عقدة واحدة، وهي ما أسموه كعباً. وما دامت النبته لم تخرج سنبلتها، فيرجى أن تستمر في النمو وأن توجد فيها عقد أخرى؛ ويضرب المثل للأمر انقطع الأمل في حدوثه أو زيادته. وقولهم «زرع دنا

حصاده»؛ ويضرب للأشياء التي دنا أجلها وقرب انقضاؤها.

ونقيض الصبر التعجل وسرعة الغضب لأتفه أمر؛ يصور ذلك قولهم في المثل «تفوّحه الخوصه» فاح القدر وغيره: غلى، ونار الخوصة ضئيلة وقصيرة الزمن، ويعني المثل أن الأمر عجل جداً أو حقير ولا يستحق شيئاً؛ ويضرب المثل لمن يغضب ويثور لأتفه الأسباب. وقولهم في المثل «شعلة ليف» الليف من المواد سريعة الاشتعال، ولكن ناره لا تلبث أن تنطفئ بعد برهة قليلة؛ ويضرب المثل للأمر قصير الأجل أو النَفَس. و«يشب بليفه» والليفة من أشد المواد اشتعالاً؛ ويضرب المثل للإنسان سريع الانفعال حاد الطبع.

وسوء التصرف بمختلف أشكاله مذموم في أعراف المجتمع الزراعي، لذا حاولت أمثالهم تصويره بصور تنفر منه؛ ففي المثل «من قلّت تدابيره حنطته كلت شعيره». وقصة المثل إن أحد المزارعين عندما حصد زرعه في وقت الصيف وكان مكوناً من الحنطة والشعير وجد إنتاجه وافراً في تلك السنة فأصابه الغرور والوهم عندما شاهد فرساً معروضة للبيع وقال لصاحبها بكم هذه الفرس قال له صاحبها بما لديك من القمح، فوافق واشترى الفرس وصار يطعمها من الشعير المخزون لديه حتى انتهى الشعير فوهنت الفرس ومرضت وأخيراً ماتت فضرب كفاً بكف وقال من قلت تدابيره حنطته كلت شعيره، فذهب قوله مثلاً. ومن شأن هذا أن يذهب عمله هباءً وينطبق عليه المثل «دَلُو ذِباذِب، لا لِلبِير ولا للجاذب» أي كالدلو التي تتذبذب، فيذهب ماؤها عند إخراجها من البئر، فلا هو بقي في البئر، ولا هو بيد الجاذب؛ يضرب المثل للشيء الذي يذهب هباءً فلا ينتفع به، بسبب التنازع عليه.

وقد يبلغ بالإنسان ضعف عقله وغفلته أن يزرع ما لا يمكن أن يزرع أو أن يكون بمنزلة من يفعل ذلك، قالوا في المثل «مخبَّلٍ يزرع الصوف» وبعضهم يزيد فيه «يبيه ينبت خروف». والمعنى أنه مجنون يبلغ به جنونه أن يزرع الصوف مؤملاً أن ينبت منه خروف؛ يضرب لمن يأتي أعمالاً غير معقولة أو مقبولة؛ ويحكى أن قوماً قيل لهم ازرعوا صوفاً على أن تبول عليه بنات أبكار كل صباح ينبت خرافاً، ففعلوا ذلك ولبثوا مدة ينادون أحواض الصوف لعل الخراف تسمعهم فتأتي، ظلوا كذلك حتى استيئسوا وأدركوا ما وقعوا فيه من الغفلة.

وإذا كانت هذه حال من أساء تدبير أموره، فإن المفرّط في حفظ ماله يمكن أن يقال له «يفرخ في الكرب». كما أن الشخص الخشن في طباعه، يمكن أن يقال له «نبع نخله» ويضرب للشخص خشن المظهر أو المعاملة. أما القاصر في تصرفاته فهو «يجاوش بخصف»، أي يسير عكس الريح والخصف هو الحصير. والإنسان الذي لا يعرف أين يضع قدميه ويتعثر كثيراً في سيره، بسبب إهماله للأمور، يقال له «ركض البقره في الذره». كما أن الإنسان الذي لا يحسب للأمور ما تحتاجه يمكن أن يقال له «ما نتلاقى ببطيخ» إذ إن تبادل الرمي يكون عادةً بالسلاح. كما أن العداوة الخفية أخطر من الظاهرة، إذ لا تعطى الفرصة لمن يكون هدفاً لها باتخاذ الحيطة ولهذا صورت بصورة معبرة اكتسبها الفلاح من واقع تعامله مع أنواع محاصيله وخصائص كل نبتة، فقالوا عنها «ملابيد في الذره» لأن الذرة دون غيرها من أنواع الحبوب طويلة تخفي من يكون بها إخفاءً تاماً. ويُعبَّر عن وقوع المكروه أو وجود المحذور بقولهم «الذيب بالقليب».

ولأن المحاصيل الزراعية تتعرض كثيراً للآفات، وقد يتعرض المحصول إلى فناء تام، جاءت أمثال أهل الحرث تؤكد هذه الظاهرة؛ فقالوا «لا تقول حَب لما توكي غراره» أو «لا تقول بر لين توكي عليه»، أي لا تقل عن الزرع إنه حب حتى تختم على المحصول أوعيته، لأنه معرض للتلف، والغرار: أوعية نقل الحبوب ونحوها. وكذلك قولهم «لا تقول حَب لين توفي قراره»، أي لا تقل هذا حب إلا بعد أن تعرف مقداره وتسدد قيمته. وكثيراً ما يعجز الفلاح عن سداد ما عليه من ديون لضعف محاصيله أو لاجتياح الآفات زرعه من جراد أو برد، ولذلك يتأخر عن السداد؛ ولذلك قالوا في المثل الشعبي «خذ من الفلاح، ما لاح» لاح: أي ظهر، ومعنى المثل: إذا كان لك دين على فلاح، فخذ منه ما يعرضه عليك، لأن الفلاحين في الغالب، بخاصة في عهود الإمارات في نجد، كان أكثرهم مثقلين بالديون، ولا يطمع الدائن في استيفاء حقه كاملاً؛ ويضرب المثل للقبول بما يتاح وإن كان قليلاً، وإلاّ فات المرء الأمر كله، قليله وكثيره.

وإذا كانت الأمثال التي اختصت بالإنتاج الزراعي قد تجاوزت المائة، فإن تلك التي تناولت الأدوات الزراعية، كالمحالة والسريح والرشا، وأماكن الصدر وأجزاءه قد تجاوزت الستين مثلاً، وهي في نظرنا أبلغ من تلك التي

اتخذت الإنتاج الزراعـي مادة لصياغة أساليبها. فالحث على التعاون والترابط في المسائـل الزراعية أمر قد اتضـحت فوائده من واقع مدلول المثل «الى طاح من طي الركيه طيه، فاعرف ترى طي الركيه طاح». والمعنى أنه إذا سقط حجر من أحد جوانب البئر، فإن بقية الأحجار سوف تتهاوى بعده. وإذا كان التعاون جانباً مهماً في حياة الأفراد بشكل عام، والمجتمع الزراعي بشكل خاص، فإن التصرفات السيئة، كجرح مشاعر الناس بقول أو فـعل قبيح أو غيـر مناسب، أمور منهيّ عـنها كقولهم «اسكر ماك بلزاك» والمعنى لا تتفوه بقبيح لأن معنى اسكر: امنع. وقد استعاروا للكلام الماء واللزا للـفم وحفظ اللسان، أو «خـل ماك في لزاك».

والأعمال الزراعية في مجملها ذات توقيت زمني محدد، يستلزم من العامل أو الفلاح القيام بها في أوقاتهـا المحددة وكأنها أعمال إجـبارية، ولهذا قيل في أمثالهم «اسن، والا سنت بك المحاله». أي أن إعطاء كل عمل حقه أمرٌ ضروري، لكي تسير الأمور بسهولة ويـسر ولا بد من اتخاذ التدابير المنـاسبة لذلك. ومن هنـا قيـل «ادهن المحالـه يهـون زعب الغرب».

إن معاناة الفلاح تظهر بوضوح من خلال كثرة العمليـات الزراعية المختلفة والمتواصلـة، كما يشير إلـى ذلك المثل «حمار سـدوس بالليل يسـني وبالنهار يدوس»؛ إذ إن العمـليتين اللتين بُـنيت علـيهمـا تركيـبة المثـل وهما؛ يـسني ويدوس، تضمَّان بينهما جميع العمليات الزراعية الأخرى، مما يؤكد هذه المعاناة. واسم «سدوس» جاء فقط للسجع وربما كانت قرية سدوس المعروفة. وعلى الرغم من معاناة الزراعة، إلا أن الفلاح، وهو الذي يشتغل بـفلاحة أرض يملكها، له غُنْمها وعـليه غرمها، خير من الـعامل الذي يُستأجر للعمل في الأرض فقط، خاصة إذا تصورنا أن الفلاح، وهو مالك الأرض، يعيش في شظـف من العيش فكيف تكون حال العامل؟؛ ولهذا قيل «اسم فلاح ولا اسم كالف»؛ ويضرب المثل في أن بعض الأمور أهون من بعضها الآخر. ومن يجد شيئاً هو القـادر على التسلف والمقايضة قالوا «يتسلف العيش اللي عنده طحين» أي أن من يجد عيشاً سيـجد مـن يعطـيه طـحينـاً لأن الرد مضمون.

وإن كانت الزراعـة بشكل عام في شبه الجزيرة العربية، أحد مقومات جلب الرزق، فهي مهنة لا يماثلها في شقائها

إلا غنائم الحرب أو السلب أو النهب ومن هنا قيل «الرزق تحت العجاجتين: عجاجة الخيل وعجاجة المسحاة». والمعنى أن الرزق يوجد تحت العجاج الذي تثيره إما الخيل في القتال أو المسحاة عند حرث الأرض. وتعود كل أمور الفلاح بالفائدة عليه؛ فالبقرة الحلوب التي تتخذ سانية، يستخرج منها الزبد واللبن؛ ولهذا قيل «تجر رشاك وتدهن عشاك» والمعنى يعود إلى البقرة الحلوب؛ ويضرب المثل للشيء الذي يستفاد منه من وجوه عديدة.

والإنسان الذي لا يعمل عملاً شريفاً، كالفلاحة يجلب له الرزق، لا بد أن يختار أمراً غيره وربما يكون أصعب منه كالاستدانة من بعض التجار؛ ولذلك يردّد الفلاحون مثلاً في الحث على الاستمرار في الزراعة وأنها أهون من غيرها يقول «جال الركيه ولا جال ابن غنام»؛ ويضرب المثل للاختيار بين أمرين أحلاهما مُرْ. ولهذا المثل قصة ملخصها أن ابن غنام كان صاحب مزرعة، فاستخدم صبياً يسقي زرعه، وبعد أن عمل الصبي فترة من الوقت وانتجت الأرض، قال لابن غنام: أتسمح لي ياسيدي بزيارة أهلي لفترة ثم أعود؟ قال ابن غنام: بعد أن تصفي الثمرة ونقبض الثمن أعطيك الرخصة وأعطيك المعاش فانتظر. واستمر الصبي في العمل وصفى الإنتاج، وبدأ بعمل جديد وقد مضت فترة من الزمن، فأعاد الصبي الطلب فقال له ابن غنام ما قاله من قبل. وهكذا تتكرر المقولات والصبي يطلب الرخصة وابن غنام يعده؛ حتى إذا كان الصبي في يوم من الأيام وهو يسوق الحمير أمام البئر الواسع وفكرة السفر تراوده، إذا به يقول جال الركيه ولا جال ابن غنام، ثم يلقي بنفسه في البئر، وكانت نهايته. ويضرب المثل لحسم الأمر وعدم التردد في اتخاذ القرار، ولو كان القرار صعباً ومهلكاً. فقسوة الحسم أشد راحة من حيرة القلق والتردد. والإنسان لا يمكن أن يختار الأمور الصعبة على السهلة ما لم يكن مثل ثور سكيت كما في قولهم «ثور سكيت يستحب الموت على السواني». كما أن الإنسان الذي لا يحسب الأمور بدقة، سوف يضطر مع الأيام مكرهاً إلى اللجوء إلى أشياء لا يمكن أن تفيده أو تحقق له ما يريد، كما قيل «أبا الحصين يوم فاته السريح عض الدراجه»؛ بل إن زمام الأمور ربما ينفلت منه كما في قولهم «تقطع عليه الما»، ويستمر الإنسان بسبب ذلك في شقاء دائم لا أمل في الهروب منه، كما في قولهم «الحبل على الجرار» فثقل الدلو

على الحيوان الحامل الحبل، وربما خارت قوى الإنسان وبدا عليه التعب والإعياء من البحث عن عمل جديد، أو من الضيق بعمل لا يجيده كما في قولهم «البقره دايسه».

كما دلت الأمثال على قرارات خاصة، نتجت عن المعاملات الزراعية على اختلافها. فالشراكة سائدة بينهم كقولهم «خليت حق الشريك في القاع» كناية عن ترك التشاحن والطمع في حق الغير، كما يترك الشريك المنصف حق شريكه في الأرض عند اقتسام القمح، الذي هو مظنة حدوث النزاع والخصام بين الشريكين، وكقولهم «راع السدس ما يرد الحمار عن الكدس»؛ ويضرب في ضياع المال المشترك، خاصة إذا كان نصيب الشريكين غير متساوٍ، وقولهم «راعي النصف سالم» والمثل يحتمل تفسيرات عديدة منها أن من بقي له نصف ماله بعد حدوث كارثة يعتبر سالماً، ومنها أن من شارك بالنصف قد يسلم من أذى شريكه.

وحياة الفلاح مليئة بالصور المتناقضة التي تدهش الإنسان. منها ما يرتبط بالسلوك الفردي كالشخص الذي يصوره المثل القائل «ياطا السريح عناد»، وهو كناية عن الشخص الذي يأتي الأمر المنهي عنه معاندة، وقريب من ذلك قولهم «يربض بالدوسه» والدوسة مكان دياسة الزرع، والضمير يعود إلى الحمار الذي يربض بالدوسة عناداً، ويضرب المثل لمن يحمل خصلة سيئة لا تُحتمل أو لا يخلص في أداء عمله. ومن المعاندة ما هو إصرار على الحضور والظهور بدون يأس قالوا «كربة يابسه تغطها بالماء وتظهر» الكربة خفيفة الوزن، ويربطها من يتعلم السباحة على ظهره، لتمنعه من الغوص؛ ويضرب المثل للإنسان يبقى على ما جبل عليه من طباع؛ أو يضرب المثل للشخص دائم الحضور في كل موقع وكل مناسبة؛ أو يضرب المثل كناية عن عدم اليأس للشخص مهما كانت الخسائر أو الفشل فإنه قادر على النجاح من جديد. وقالوا «لو ينبت براسه نخله»؛ يضرب هذا المثل للتحدي بحدوث ما لا يتوقع حدوثه أو المستحيل. والآخر الذي يصوره المثل «يسني على كل مسنى»، ويضرب للشخص الذي لا يتورع عن الدخول في كل مدخل، أو الذي يمكن أن يفيدك في أي باب توجهه إليه، وقد يكون المقصود عكس ذلك تماماً، كما جاء قولهم «ما يسقيك من الساقي» أو «ما يسقيك من الماء البارد»، أي لا يفهم مهما علمته، كالذي يصوره المثل «ما

يردد بالمناحي إلا البقر» أو ذلك الذي ليس له من المحصول شيء، كما في المثل «لا صرّام ولا متلقي» أو «كسر عَرَاقي» لأن عراقي الدلو إذا انكسرت لا ينتفع بها في شيء. أو ذلك العامل الذي يأخذ الكثير ولا يعطي إلا القليل، كما في المثل «الغرب غرب حميّر والبطن بطن بعيّر» أو أنه لرداءته يصرف عنه النظر في مواقف عديدة، كما في المثل «علق حمار»، أو يصل خيره لغيره كما في المثل «عين عذاري تسقي البعيد وتخلي القريب». واليأس من الشيء يدفع إلى التخلص منه وتركه جملة كما في المثل «يامقيط، دوك رشاك» أو «يامقيط هاك رشاك» مقيط: اسم رجل. الرشا: الحبل يربط في الدلو لإخراج الماء. دوك بمعنى دونك أي خذ؛ ويضرب المثل في الحمق. ولهذا المثل قصة، وهي أن رجلين خرجا لصيد الصقور، وكان الصيادون يعلمون أن الصقور تبيض وتربي فراخها في قمم الجبال المرتفعة، ومثل هذه الأماكن تسمى مصقرة. والصقر قليل البيض، تبيض أنثاه بيضة أو بيضتين فقط. وأن الرجلين ذهبا لجذب ماكر فيه فراخ، وعادة، يوجد في الماكر ثلاث بيضات وتفقس متتابعة؛ الأول ويسمى النادر ثم اللزيز ثم التبع. وعندما نزل مقيط ووصل إلى الماكر (العش) قال: ابشر لقيت النادر!! قال صاحبه الذي يمسك بالرشا: النادر لمن؟

فقال: هذا لي، وأبشر لقيت اللزيز!!

فقال صاحبه: وهذا لمن؟

فقال مقيط: هذا لاخوي!! وأبشر لقيت التبع!!

فقال: وهذا لمن؟

فقال مقيط: هذا لابوي!!

فقال صاحبه الذي يمسك بالرشا: يامقيط.

فقال: نعم.

قال: دوك رشاك.

وأطلقه فهوى مقيط مع الطيور والرشا إلى الأرض.

ويضرب المثل للفعل الأخرق أو الأحمق أو للفعل الذي يدل على الجهل أو قلة الخبرة أو الحيلة.

وفي مقابل تلك الصور المذمومة، هناك صور مشرقة لأولئك الرجال الذين تتسع صدورهم لأخطاء الجهال «صدره حياله»، أو يكون رهن الإشارة في الأمور النافعة «دلو تومي ورشاها بيدك» أو أنه جرب الأمور حلوها ومرها، حتى أصبح يميز الصالح من الطالح «ساني ومسني عليه». ومثل هذا تجده حريصاً فهو «يسبح ويده بالرشا»، أي يسبح في ماء البئر

ويده ممسكة بالرشا، وهذا دليل على الحرص وشدة الاحتياط لئلا يغرق. ويضرب للحازم المفْرِط في الحزم أو للإنسان الحذر. والحقيقة أن قدرة الأشخاص تتفاوت سواء في الأمور المعنوية أو الحسية، ولهذا قالوا «ما كل حصاة تصلح ثقل»، فبعض الأشخاص ربما ينفع والآخر ربما يضر، وربما يجمع الشخص بين النفع والضّر. «دلو ماء ودلو طين» إذ هو كالبئر القليلة الماء تخرج الدلو منها مرة بماء ومرة بطين. وهو على كل حال، أفضل من ذاك الذي لا نفع فيه، كماً صوره المثل «ساقي يمشي ولا ساقي ياقف». كما أن الأشخاص مهما تفاوتت قدرتهم في تنفيذ المهام الزراعية وغيرها، فيجب أخذ ضعيفهم في الاعتبار، لأنه ربما ينفع في أمور لا يجيدها إلا هو «العصفور يهزع الرشا»، و«زابن ويعطل مربوعه»، والزابن عسيب يزال خوصه ثم يربط في جانب الدراجة، ليحول دون خروج السريح من فوقها. و«لقيناه دبيه تاكل التمر وعبسه»، لقيناه: وجدناه، دبيه: مفرد دبا، صغار الجراد. ويضرب المثل للشيء الحقير أو الأمر اليسير تحدث عنه أشياء غير متوقعة لأنها فوق طاقته. وأمّا الجاهل الذي لا يتعلم مهما عُلم فمعلمه مثل الذي «يحقن بخصفه» الخصفه: وعاء التمر، وهي بداهة لا تمسك الماء، ويضرب المثل للفعل الأخرق أو الأحمق أو للفعل الذي يدل على الجهل أو قلة الخبرة أو الحيلة.

والماء الذي هو عماد الزراعة في كل بيئة، تَرَقَّبه الفلاح التقليدي في البيئة الصحراوية الشحيحة بمائها. فعرف خصائصه وهو سحاب في السماء، كما في المثل «كم بارق ما تنثر الماء مخايله»، ويضرب للشيء تؤمله فلا يحدث منه ما تريد، أما إذا قُدِّر للسحب أن تنثر ماءها فإن «السيل ما يسد بالعباة» أو «يسد السيل بعباته»، أو «سديها بليفه»؛ ويضرب لمن يعد عدة تافهة لأمور خطيرة. وإذا نزل المطر وتسرب في باطن الأرض فإن له مواقع كمغاز الريش «الما مغاز ريش»، ويضرب لعدم اليأس من وجود الماء في منطقة لم يعثر عليه في بعض أجزائها. وإذا وجد الماء واستخدمت فيه وسائل الرفع، وبدأت عمليات توجيهه في الحقل قيل عنه «الماء مثل الحمار إن سيرته سار وان حيرته حار». ونظراً لأن أغلب منشأ السحاب في وسط شبه الجزيرة العربية من جهة الغرب، فقد ضربوا للأشياء المتوقع حدوثها من خير وشر، المثل «ترعد في القبله». والعناصر المناخية مترابطة في واقعها، فالرياح هي التي تلقح

السحاب ولهذا قالوا في انتظار الأمطار بعد العجاج «عجاج يتبعه مطر» ويضرب لتحقق المنفعة بعد حدوث الإساءة، وقالوا «النسري معه الخير يسري» والنسري هي الرياح التي تأتي من جهة مطلع النسر (جهة الشمال الشرقي)، وذلك بالنسبة لوسط شبه الجزيرة العربية؛ والمقصود إذا هبت رياح الشتاء من تلك الجهة ليلاً، فإن الغالب أن يكون معها سحاب ومطر. وهذا تفسير علمي صحيح، إذ إن التقاء الرياح الشمالية الشرقية الباردة مع الرياح الجنوبية الشرقية الدافئة المحملة بالرطوبة، يعني التقاء يدفع الرياح الرطبة الجنوبية الشرقية فوق الرياح الشمالية الشرقية، فيحدث التكاثف وهطول الأمطار بإذن الله. ومن أوضح ما قاله أهل الحرث في مدح أثر الرياح في تكوين السحاب، المثل «ما كدَّرت الا وغدَّرت».

وإذا كانت مياه الأمطار أهم عنصر في حياة أهل الحرث وأهل البادية على حد سواء، فإنهم في مجملهم، وهم يشكلون أغلبية من يعتمدون على الأمطار في حياتهم في شبه الجزيرة العربية، قد أدركوا أهمية الفترة الزمنية التي تسقط فيها، لإن إمكانية الانتفاع بمياه الأمطار تختلف -بإذن الله- من فترة إلى أخرى، وفاقاً لحاجة النبات وخصائصه. ولهذا قالوا في أمثالهم «يالله صيفيه نرعى بها حوليه، ولا وسميه نرعى بها شتويه». والصيفية هي السحابة التي تمطر في الصيف؛ والصيف عندهم هو ما يسمى الآن فصل الربيع، وكانوا يسمونه القيظ، ولا ينزل فيه مطر، والتسميتان فصيحتان؛ ويضرب المثل للتفضيل، إذ أن مطر الصيف أفضل من مطر الوسمي، وهو المطر في آخر الخريف وأوائل الشتاء، ويبدأ الوسمي عندهم من ١٦ أكتوبر، ويستمر مدة أربعين يوماً.

والقمح، وهو أحد المحاصيل الرئيسية في شبه الجزيرة العربية، تختلف حاجته للماء وفقاً لفترة زرعه. فإذا تأخرت الأمطار، أو لم يهطل المطر في بعض الفترات التي يحتاج فيها القمح للماء، فإن الساني، وهو الذي يقوم بالسني سواء على الدواب أو على ظهره، يلاقي مشقة كبيرة في تلك الفترة؛ كما قال الشاعر:

عزي لسواق السواني من السرى
إلى صار هطال السماك عجاج

والسماك نوء من الأنواء سبق الحديث عنه مفصلاً. ومعنى المثل أنه يعزّ عليَّ سهر سائق السواني إذا أصبح العجاج بديلاً من السحاب الهاطل بالمطر في نوء السماك، لأن القمح في ذلك النوء يحتاج إلى ماء كثير بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

ويقول المثل «الزرع ما ياوي ليالي خناقه»، وليالي الخناق هي الليالي التي تكون سنبلة الزرع في أعلى النبتة، ولم تخرج بعد، إذ يحتاج الزرع لماء كثير وجهد وفير، من العامل والفلاح على حد سواء.

والأمطار التي لا تأتي في أوقات حاجة الزروع إليها، لا نفع فيها ولهذا قالوا «متى يانجد تسيلين؟ الى صار الزرع بالجرين؟». والجرين البيدر أو القوع، ويضرب المثل في تأخير النفع عن وقت الحاجة. ومثل هذا أيضاً قولهم «الزرع الى ودع ما ينفعه ماه»، ويضرب للشيء الذي يفيد في وقت ولا يفيد في أوقات أخرى.

وحكمة أهل الحرث تجلت بوضوح في الربط بين النجوم والعمليات الزراعية، أو بمعنى آخر المعرفة الدقيقة لخصائص الوقت أو الزمن وربط ذلك بالجوانب الرئيسية لمهنة الفلاح، من ماء ونبات وعمليات زراعية أخرى، بل تجاوزتها إلى بعض الخصائص في حياة الفلاح نفسه.
وسهيل منزل الطرفة، وهو من منازل فصل الخريف، قيلت فيه أمثال كثيرة لأهل الحرث حددت ظهوره كما في المثل «إلى صار المجر على المسر فاعرف ان سهيل قد ظهر»، وحددت بعض خصائصه؛ «إلى دلق سهيل لا تامن السيل»، و«إلى طلع سهيل رفع كيل ووضع كيل»، والمعنى أن الأسعار في سهيل تتغير، فإن كثرت الأمطار رخصت الأسعار والعكس صحيح. وقولهم «بين سهيل والمرزم نجم ييبس غزير الجم»، والمرزم: مرزم الذراع. ومما قيل في خصائصه «إلى ظهر سهيل تَلَمَّس التمر في الليل».

ومن النجوم المشهورة التي لها ارتباط واضح وتستخدم للاستدلال على تغيرات الطقس العقرب، «بالعقرب الوسطى يشيح المشرب»، والمراد إذا دخلت العقرب الوسطى، فإن المشرب الذي يسقي الزرع يشيح، أي يتعب من كثرة المواظبة والجد في سقي الزرع، لأن الزرع في ذلك الوقت يتطلب كثيراً من الماء لارتفاع حرارة الشمس. وقولهم في مثل آخر «لولا العقارب كان كل يزرع حتى العجايز ناحلات المرافق» إشارة إلى ضعفهن، وذلك للأضرار التي تخلفها تلك الفترة للمزارعين.

وللثريا قرانات عدة بالقمر، سبق الحديث عنها مفصلاً، وقد صيغت حولها أمثال سائرة استدل بها على تغيرات الطقس، منها «قران خامس ربيع غامس»، أي إذا اقترنت الثريا والقمر في اليوم الخامس من الشهر فإن الربيع،

أي العشب، في ذلك العام سيكون جيداً حتى ينغمس فيه كل القوم.

وقولهم «قران ثالث ربيع ذالف»، و«قران ثالث رحال ولابث»، وقولهم «قران سابع مجيع وشابع»، وقولهم «قران حادي على القليب ترادي»، وقولهم «قران حادي، برد بادي»، وقولهم «قران تاسع، برد لاسع».

والثريا من النجوم المشهورة التي استدل بها أهل الحرث، فقالوا فيها، «إلى طلعت الثريا من عشيا ترى زرع الشتا قد تهيا»، وكقولهم في الكليبين وهو النثرة «إلى طلعت الكليبين تاخذ الحفنة من المدين»، أي إذا طلع الكليبان في الفجر فإنك تستطيع أن تأخذ حفنة الرطب من البسر، الذي قد أزهى. وقد قالوا في المرزم، وهو مرزم الذراع عند العرب القدماء «إلى طلع المرزم فامل المحزم» وفي رواية «ما بين سهيل والمرزم شوبٍ يرشف غزير الجم»، وقالوا في الجوزاء «إلى طلعت الجوزا فامل الحوزا» والحوزا أو الحوزاء هي الجيب.

وإذا كان الفلاح القديم قد استدل بطلوع الأنواء وأفولها على معرفة التغيرات الفصلية وما يتبعها من اختلافات طقسية، فإنه قد استدل بظهور بعض الظواهر في بيئته، سواء أكانت نباتية أم حيوانية، على تلك التغيرات أيضاً. من ذلك قولهم في المثل «لى طاح الكنار تساوى الليل والنهار»، والكنار: النبق. وقولهم «إلى طلع أباذار، أبرضت الاشجار، وأفرخت الأطيار، وتساوى الليل والنهار، وتعلل الجار مع الجار»، وأباذار يقال إنه الجعل، وظهوره على وجه الأرض علامة على حلول فصل الربيع، ولعل أباذار تحريف لشهر آذار، وهو الشهر الثالث من شهور السنة الشمسية السريانية، وهو أول فصل الربيع، كما مر سابقاً.

كما نقل الفلاح التقليدي، نظراً لخبرته الطويلة وممارسته لمهنته، حصيلة تلك التجارب، في أقواله الخاصة والعامة، عن خصائص بعض الظواهر الطبيعية التي ترتبط بطلوع أو أفول تلك الأنواء، ومنها قولهم «مبكية الحصني تقاها ظلالها»، والضمير يعود إلى الرياح الجنوبية الشرقية والتي تهب من مطلع الشمس. ويضرب المثل في أن بعض الأمور يجبر الإنسان على فعلها ولو كان مقتنعاً بخطأ فعله لها، فالحصيني، وهو الثعلب، يجعل باب جحره إلى جهة المشرق شتاءً، بهدف التدفئة ولكنه يفاجأ بهبوب الرياح الشرقية والجنوبية الشرقية في فصل الشتاء، وتكون،

عادة، باردة ومع ذلك يستقبلها مكرهاً. ومن الأمثلة المرتبطة بهذا المعنى قولهم «اطلعوا باللحاف وانزلوا بالمهاف»، والمثل ينبىء عن إدراك عميق لخصائص التغيرات، بل وتأثيراتها الصحية على الإنسان، فالمثل يقول إذا حل الدفء في فصل الربيع، فاخرجوا من المنازل واصعدوا إلى السطوح، ومعكم اللحف، وهي الأغطية التي يلتحف بها الناس أثناء النوم لتقيهم البرد، أما إذا بدأ البرد في فصل الخريف، فانزلوا من السطوح إلى داخل الغرف، حتى ولو احتجتم إلى المراوح، لأن البقاء في البرد ضرر على الصحة. وإذا كانت التغيرات الطقسية تضر بالصحة العامة للإنسان، فإنها أيضاً تضر بالمحصولات الزراعية، بل تغير في كمال الإنتاج. والضرر بالنسبة للمحصول واضح في المثل «إلى هافت أو صافت»، والضمائر تعود لسنبلة الزرع أو ثمرته، وهافت: أصابتها الهيف، وهي رياح جنوبية حارة تهب على الزرع في وسط شبه الجزيرة العربية أحياناً، فتيبسه وتفسد ثمرته خاصة إذا احتبس المطر وأجدبت الأرض، وصافت: أصابها الصيف، أي الحر الشديد. ويضرب المثل على ادخار ما ينفع في وقت الشدة من المال.

وإذا كانت التغيرات الطقسية قد تسبب بعض الأضرار، أو بعض المنافع وفاقاً لطبيعة التغير سلباً أو إيجاباً، فإن هناك أوقاتاً محددة تصبح محل نظر وسمع أهل الحرث، نظراً لما تعنيه هذه الأوقات لمهنتهم كما في المثل «شهرين ما خلّن سمع ولا بصر، شهر الحصاد وشهر تلوين البسر»، إذ إنهما يتعبان أبصار وأسماع الناس بطول انتظار انقضائهما، وهما شهر ما قبل الحصاد وشهر ما قبل نضج التمور وتلوينها.

وفي بعض الأحيان تكون فترات النضج أو الحصاد مختلفة في خصائصها بالنسبة للثمرة الواحدة، ولهذا هدتهم حكمتهم لصوغ بعض أقوالهم في النهي عن أكل ثمرة بعينها، في زمن معين، كقولهم «اللي يبي علة بلا سبب، عليه بآخر البطيخ وأول العنب»، والمقصود بالعلة هنا المرض؛ والمثل يضرب في النهي عن أكل الفاكهة الفجة. أما الاستدلال باستحالة وجود ثمرة في فترة زمنية معينة لبعض المحاصيل أو الأشجار، فقد استخدمت في بعض مضارب الأمثال لاستحالة تلبية طلب معين، ومنها قولهم «شهوة عجوز بالشتاء حصرمه»، والحصرم: هو العنب قبل نضجه.

والفلاح التقليدي جزء من مجتمع يجمعه مع الراعي والتاجر والجمَّال

والصياد، ولهذا فهو يسعد ويشقى ويجود ويبخل بناءً على الظروف التي تحيط به، ولهذا قالوا عنهم كما مر آنفاً «إلى جاء الصرام فكل القوم كرام»، والصرام: صرام النخيل أي قطع عذوقها وأخذ ثمرها؛ ويضرب المثل لبذل المعروف في غير وقت الحاجة وكأن المثل يحث على بذل المعروف في أوقات الشدة لأنها أزكى وأنسب.

والفلاحة في مجملها حرفةٌ ذات خصائص أجبرت الفلاح التقليدي على صياغة أمثال وأقوال، تبين تلك الجوانب فهو يقول «الفلاحه عطها وتعطيك»، والمعنى وفر للأرض الزراعية ما تحتاجه من العناية، فتعطيك ما تريده منها من الغلة. و«قلِّل ودلِّل» ويضرب في النهي عن تكثير الزرع مع إهماله، و«كل وناة فيها خيره إلا وناة العرس والثمره»، و«الما نما» أي أن الماء نماء، والمراد أنه سبب من أسباب النماء والزيادة؛ ويضرب لتأكيد أهمية الإكثار من ري المزروعات في الأوقات التي يحتاج فيها النبات إلى الماء. ويدعو المزارع ربه بعد أن يقضي ما عليه أن يحفظ زرعه، صوَّر هذا قولهم في المثل «يكفيه الله شر البرد والبَرَد والجراد وما ولد» هذا المثل يقوله المزارع عند بذر الحبوب ويطلب من الله أن يقيه من البرد الشديد وكذلك البَرَد ويقيه أيضاً من الجراد وأولاده الدبا والكتفان والخيفان. والمثل «ياولي السما واجعله عيثري» يقوله المزارع عند نثر البذور فيدعو الله أن يجعله عيثري أي يستمر عليه المطر فلا يحتاج إلى سقيا.

والأعمال الزراعية تخصصات، فقد لا تجد الرجل الذي يجيد كل الأعمال الزراعية، فضلاً عن أن يقوم بها جميعها في آن واحد، ولهذا قالوا «كلٍّ يسني ولا كلٍّ يروس»، والمعنى ليس كل شخص يجيد عملية السني، وهي إخراج الماء من البئر، يستطيع بالضرورة إجادة عملية الرياسة، وهي إجراء الماء وتوجيهه داخل المزرعة؛ لأن الماء كما في مثلهم «مقطع السكرات»، تحتاج إدارته إلى رجل بارع ويقظ، يجيد المهنة، ويستطيع التعامل مع الظروف الطارئة. وقالوا «هو بحوض، والما بحوض» هذا المثل للفلاحين وهو من أمثالهم الخاصة، ويضرب للذي يعمل على غير هدى.

ولمّا كان المجتمع الزراعي القديم مجتمعاً ليس ميسوراً وتقوم مهنته على الكفاف، فإنه أحياناً يمتلك بدائل للتحول عنها عند الضرورة، أو عندما تكون الظروف غير مواتية لممارستها. وهذه الأمور أو البدائل قد تكون متباعدة في مدلولها، ولكنها تكشف عن الحياة في مجتمع الجزيرة

في تلك الفترة، ولهذا قالوا في أمثالهم «نسطي والا نعزق» ونسطي: أي نهجم على الجيران ونسلبهم أموالهم، أو نحرث الأرض ونزرع؛ ويضرب المثل في الجمع بين أمرين متباعدين.

وللفلاح مناسباته الخاصة، بل له ما يشبه الأعياد، فتجده يحتفل بها ويرتب لها. وتجمع احتفالاته هذه، عادة، مناسبات عديدة، لهذا قيل لمن جمع مناسبة في مناسبات عديدة «عشاً غداً عيدٍ للسيل وختامه».

وإذا كان الفلاح لا يستطيع، في معظم الأحيان، القيام بكل عملياته الزراعية بمفرده، فقد حدد لكل عمل، بل لكل فترة عمل ما يناسبها من الأجرة، سواء أكانت مقداراً من المحصول أم من النقود، ولذا قيل «الغبشه بصاع والصحبه في محلها»؛ ويضرب في تجنب المجاملة. والغبشة الفترة من الوقت بين الفجر والضحى.

وعلى الرغم من أن المحصول قد يكون قليلاً كما في المثل الذي مر سابقاً «ما لقى الحَصَّاد يلقى المتلقّط أو المتسقط»، إلا أن الفلاح قد تعارف مع بقية أفراد المجتمع على أن الانتفاع بالثمار وسد رمق الجوع لعابر السبيل، لا يعني الاعتداء ولا يأخذ معايير السرقة. ولهذا جسد تلك المعاني في عدة أمثال، لعل من أشهرها المثل «إلى مريت بزرع فانتقم»، ومعنى انتقم أو نقّم أي أخرج الحبة من سنبلتها. ويضرب المثل في جواز الأكل من الثمرة وهي على شجرها لعابر الطريق. ويمثل المثل جزءاً من قيم أهل الحرث التي يضاف لها الكثير من الخصائص الفريدة وهي مستمدة من تعاليم الدين الحنيف.